البحث الخامس والعشرون

أسرار البيان
في
صريح أقسام القرآن

إعداد

د / نوال عبد المجيد تمام

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

لجنة التحكيم

أ.د / محمود مهنى محمود عضو اللجنة العلمية الدائمة

أ.د / على أحمد فروج عضو اللجنة العلمية الدائمة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد :-

فإن القرآن الكريم هو كتاب الله المبين ، وهو الدستور الكامل ، والمنهج القويم الذى أنعم به على العالمين ، وأنزله على رسوله الكريم ﷺ معجزة قاطعة وحجة واضحة وبرهاناً ساطعاً على صدق رسالته وعموم دعوته .

ولقد حوى القرآن الكريم الهدى والنور ، والخير والرحمة ، والحكمة والرشاد يدعو الناس جميعاً إلى كل ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم ، ويسعدهم فى دنياهم وآخرتهم ، وذلك بما اشتمل عليه وتضمنه من عقائد سليمة وشرائع قويمة وقيم أصيلة ، ومبادئ سامية ، ومقاصد عالية ، وآداب جليلة ، وتوجيهات حكيمة ، ووصايا نافعة ، ليخرج الناس من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والهداية والعلم .

قال تعالى﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ (الإسراء : ٩)

ومن ثم وجب على المسلمين أن يجتهدوا فى تعلم القرآن ، وتفهم أسراره ، وتدبر معانيه ، ولا يتأتى ذلك إلا بدارسة علومه ، وتفسيره وبيان حكمه وأسراره وتوضيح شرائعه وأحكامه .

ومن هذا المنطلق وقع الاختيار فى هذا البحث الموجز عن موضوع القسم فى القرآن نظراً لما فيه من الحكم والأسرار ، والاستدلال على قدرة وعظمة الواحد القهار ، فلقد شاء الحق – تبارك وتعالى – أن يكون كتابه الكريم معجزة لخلقه فى كل شئ ... وفى البلاغة والأسلوب ، فجاء القرآن بمجموعة متنوعة من الأساليب التى تؤدى غرضها فى تآلف وتناسق وترابط ، لتشهد بعظمة الحق سبحانه وتسبح بحمده .

ومن أبدع الأساليب التى اشتمل عليها كتاب رب العالمين : أسلوب القسم وهو أسلوب أنشائى وفائدته تأكيد الجملة الخبرية وتحقيقها عند السامعين .

فالقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشئ في النفس وتقويه ، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الخصم الألد فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات ، ويقيم الحجة ، ويؤكد الأخبار ، ويقرر الحكم في أكمل صورة ، وهذا يعد آية من آيات العظمة الإلهية ، ودليلاً على بلاغة الأسلوب البارع والعبارة الرصينة ، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب ، وبأساليبهم التي اعتادوها ، ومن عادة العرب القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً .

وقد ورد القسم في القرآن الكريم صريحاً ومضمراً في آيات كثيرة في المرحلتين المكية والمدنية ، كما جرى القسم المضمر على أساليب العرب المألوفة لهم ، أما القسم الصريح فهو الذي لفت نظر المفسرين والباحثين، لما يمتاز به من خصائص مميزه له انفرد بها دون غيره من كلام العرب.

ومن هنا ستدور الدراسة في هذا البحث حوله ، وقد عنونت له بعنوان : " أسرار البيان في صريح أقسام القرآن " .

ويشتمل هذا البحث على مقدمة وخمسة فصول :-

أما المقدمة : فقد تحدثت فيها عن أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره .

وأما الفصل الأول : فقد تحدثت فيه عن تعريف القسم وبعض ما يتعلق به ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : تعريف القسم وبيان الفرق بينه وبين الحلف .

المبحث الثاني : أنواع القسم في القرآن .

المبحث الثالث : الشبهات الواردة حول أقسام القرآن والرد عليها.

وأما الفصل الثاني : فقد تحدثت فيه عن أركان القسم .

وأما الفصل الثالث : فقد تحدثت فيه عن المقسم به ويشتمل على تسعة مباحث :-

المبحث الأول : القسم بذاته المقدسه – سبحانه وتعالى – وبالقرآن وبالنبي ﷺ وبالملائكة وبالقلم .

المبحث الثانى : القسم بعالم الإنسان والحيوان والنبات .

المبحث الثالث : القسم بالآيات الكونية كالقسم بالسماء وما فيها .

المبحث الرابع : القسم بالأرض وما فيها .

المبحث الخامس : القسم بالزمان .

المبحث السادس : القسم بالمكان .

المبحث السابع : القسم بصيغة العموم .

المبحث الثامن : أقوال العلماء فى المقسم به المقترن " بلا النافية " .

المبحث التاسع : وقفات حول المقسم به .

وأما الفصل الرابع : فقد تحدثت فيه عن المقسم عليه ويشتمل على أربعة مباحث :-

المبحث الأول : القسم على أصول الإيمان .

المبحث الثانى : القسم على أحوال الجنس البشرى .

المبحث الثالث : القسم على البعث والجزاء والوعد والوعيد .

المبحث الرابع : وقفات حول المقسم عليه .

وأما الفصل الخامس : فقد تحدثت فيه عن الأسرار الجلية والحكم البلاغية فى الأقسام القرآنية .

وأما الخاتمة : فقد تحدثت فيها عن نتائج البحث .

و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

المبحث الأول

تعريف القسم

القسم بفتح السين بمعنى اليمين ، وبكسر السين : فهو بمعنى جزء الشئ المقسم إلى أجزاء ، والجمع أقسام .

يقال : أقسم بالله أى : حلف ، وتقاسم القوم : أى تحالفوا ، وفى التنزيل : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ (النمل : ٤٩) .

وأقسمت : أى حلفت ، وأصله من القسامة ، وهى أيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا على رجل أنه قتل صاحبهم ، ومعهم دليل دون البينة ، فيحلفون خمسين يميناً تقسم عليهم – ثم صار اسماً لكل حلف – فكأنه كان فى الأصل تقسيم أيمان ثم صار يستعمل فى نفس الحلف والأيمان ، فيقال : قسم بمعنى : حلف ، وأقسم بمعنى حلف . (١)

فالقسم فى الأصل اللغوى : القطع ، ومنه قسمة الشئ ، ثم صار يدل على قطع الظن ومحو الشبهة . (٢)

ومن هنا نجد لفظ القسم قد اشتمل على أكثر من أمر فهو بمعنى اليمين تارة ، وبمعنى الجزء تارة ، وبمعنى القسامة تارة ثالثة ، وهى أحكام فقهية تشمل الأيمان التى تستعمل فى مثل هذه الحالات ، وفى عمومه صار اسماً لكل حلف ، وقد يأتى مرة رابعة بمعنى القطع ، وهذا يدل على عظمة القرآن الكريم ، وغزارة معناه وسمو لفظه وعلو أسلوبه .

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور مادة قسم ٣٠/٥ ، ٣٦ ط دار المعارف ، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى مادة قسم .

(٢) انظر : إمعان فى أقسام القرآن للفراهى ١٦ . ومع القرآن الكريم للأستاذ / أحمد محمد الحوفى ٩٨ .

معنى الحلف :-

الحلف بالفتح أى القسم ، وبالكسر أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق وعند حصول التحالف والتعاهد بين الناس يقع توكيدها بالأيمان فصاروا يطلقون الحلف ويريدون اليمين نفسه . (٣)

قال تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ٦٢) وقال تعالى:﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ*هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ (القلم ١٠ - ١١)

يقول الفراهى : أما الحلف (٤) فمعناه القطع والحدة ، فهو شبيه بالقسم يقال سنان حليف أى : قاطع ، ولسان حليف أى حديد ذلق ، فالقول بأن فلاناً حلف أن يفعل كذا معناه أنه قطع الشك فى أن يفعل . (٥)

معنى اليمين :-

الحلف والقسم وسميت اليمين بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه فصار الحلف يسمى يميناً مجازاً (٦) قال تعالى : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ (المائدة : ٨٩) وقال تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾(المائدة ٨٩) وقال تعالى ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾(التحريم : ٣) .

---

(٣) النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم د / عبد الغنى الراجحى ص ٨٥ بتصرف .

(٤) الحلف مأخوذ من " الحلف " وهو نبات أطرافه محددة . انظر لسان العرب ٩٦٥/٢ .

(٥) انظر : إمعان فى أقسام القرآن ص ١٧ ومع القرآن الكريم د / الحوفى ٩٩

(٦) انظر مفردات القرآن للراغب ص ٤٠٣ ولسان العرب ج٥ ص ٣٠ ، ٣٦ ، ج٢ ص ٩٦٣ .

معنى الإيلاء :-

الإيلاء ، الألوة ، والألية : اليمين ، وآلى وائتلى وتأل : أقسم .

قال الفراهى : وأما الأليه : فمعناها الإقصار عن الأمر ؟ فيقال " الآلى " للمقصر العاجز عن الشئ ، ثم جاء لترك الشئ ، ومنه الإيلاء من النساء على وجه القسم ثم توسع وصار مرادفاً للقسم . (٧)

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ (البقرة : ٢٢٦) وقال:﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ ﴾ (النور : ٢٢)

معنى النذر :-

النذر : النحب ، وهو ما ينذره الإنسان فجعله على نفسه نحباً واجباً وجمعه نذور . (٨)

قال الفراهى : وأما النذر فهو الإبعاد والتحذير ، ومنه إبعاد الشئ عنك وجعله لله فصار بمعنى التحريم ثم توسع لإلزام الشئ على النفس على وجه القسم (٩).

وقد وردت هذه الكلمة فى قوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ (الإنسان : ٧) .

ومن خلال ما سبق يتضح أن كل هذه المعانى للحلف واليمين والإيلاء والنذر تدور حول معنى القسم ، ولذلك قال العلماء فى تعريف القسم لغة : أنه بمعنى الحلف واليمين واصطلاحاً : هو ربط النفس بالامتناع عن شئ أو الاقدام عليه ، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً . (١٠)

---

(٧) انظر : إمعان فى أقسام القرآن ص ١٦ .

(٨) لسان العرب مادة نذر ج ٦ ص ٤٣٩٠ .

(٩) إمعان فى أقسام القرآن ص ١٦ .

(١٠) انظر : مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ٢٩١ ط . الرياض .

الفرق بين القسم والحلف

المتأمل فى تعريف القسم حسبما ذكرته كتب اللغة والمعاجم يرى لأول وهلة أن القسم والحلف بمعنى واحد ، ولكن المحققين من علماء اللغة ذكروا أن بينهما فرقاً دقيقاً يتمثل فى أمرين :-

الأول : أن القسم أبلغ من الحلف :-

وفى ذلك يقول أبو هلال العسكرى : إن القسم أبلغ من الحلف ، لأن معنى قولنا : أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله ، والقسم النصيب ، والمراد أن الذى أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله ، والحلف من قولك : سيف حليف أى قاطع ماض ، فإذا قلت حلف بالله فكأنك قلت : قطع المخاصمة بالله ، فالأول أبلغ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم ففيه معنيان ، وقولنا حلف يفيد معنى واحداً ، وهو قطع المخاصمة فقط . (١١)

الثانى : أن القسم أعم من الحلف :-

وفى ذلك يقول د / محمد عبد الرحمن الشايع : إن هناك فرقاً دقيقاً بين القسم والحلف كالفرق بين العام والخاص لذلك يرد القسم عاماً من الله تعالى – وعلى لسان المسلمين والمنافقين ، والكفار ، فى آيات مكية ومدنية ، وغالباً ما يكون صادقاً باراً ، وإن لم يكن كذلك فى واقع الأمر فعلى الأقل فى نظر المقسم وحسب اعتقاده عند عقد اليمين ، فللحال عند عقد اليمين اعتبار .

أما الحلف فيدور غالباً على الحنث والكذب فى اليمين كما هو شأن المنافقين الذين كانوا يحلفون على الكذب ، وهم يعلمون حقيقة أمرهم عند الحلف ومع هذا يحلفون التماساً للعذر .

وعلى هذا يكون القسم لمطلق اليمين ، والحلف غالباً للحنث فى اليمين . (١٢)

---

(١١) انظر : الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى ٤٧ ط : دار الآفاق الجديدة.

(١٢) الفروق اللغوية وأثرها فى تفسير القرآن الكريم د / محمد الشايع ٢٣٨ ، ٢٣٩ باختصار .

إجراء بعض الأفعال مجرى القسم

إذا كان القسم يأتى لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجرى مجراه إذا كان سياق الكلام فى معناه [١٣] ، وهذا يشمل أمرين

الأول : الميثاق - الموثق :-

هذه من الكلمات التى تحمل معنى القسم . يقول صاحب لسان العرب : الموثق والميثاق : العهد ، والجمع : المواثيق على الأصل ، والمواثقة : المعاهدة [١٤] ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾(المائدة ٧) ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) فاللام فى قوله : (لتبيننه للناس) لام القسم ، والجملة بعدها جواب القسم ؛ لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف . [١٥]

وقد وردت كلمة " الموثق " على لسان يعقوب – عليه السلام – فى قوله تعالى : ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ (يوسف : ٦٦).

الثانى : الشهادة : -

تُعد الشهادة يمينا ، يقول ابن منظور : والشهادة خبر قاطع تقول منه : شهد الرجل على كذا ، أى حلف ، وقولهم : اشهد بكذا أى احلف [١٦] .

وقد وضح ذلك القرآن وصرح به فى قوله تعالى : ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة : ٢٠٤) فجاءت الشهادة بمعنى اليمين ، وقال تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ

---

(١٣) انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٤٥/٣ ، ومباحث فى علوم القرآن ٢٧١ .

(١٤) لسان العرب ٤٧٦٤/٦ .

(١٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقاق الحفية للجمل ١/ ٣٤٥ .

(١٦) لسان العرب ٢٣٤٨/٤ .

قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(المنافقون:١) .

قال صاحب الكشاف : يجوز أن يراد بقولهم (نشهد إنك لرسول الله) يمين من أيمانهم الكاذبة لأن الشهادة تجرى مجرى الحلف

فيما يراد به من التوكيد . (١٧)

وقال القرطبى : نشهد بمعنى نحلف ، فعبر عن الحلف بالشهادة ؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر معين (١٨)

وقال الفراهى : فإنا نرى الأمم فى المشرق والمغرب مع اختلاف كثير فى عاداتهم لا تختلف فى أنهم إذا قالوا " والله شهيد على ذلك " أو ما يشبهه أرادوا به القسم . (١٩)

***

(١٧) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى ٤/١٠٠ .

(١٨) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨/١٢٢ .

(١٩) إمعان فى أقسام القرآن ١٨ .

نبذة عن تاريخ القسم وحاجة الناس إليه

إن الإنسان فى قديم الزمان وحديثه ربما يحتاج لتأكيد خبر ما أو التحقق من نبأ عظيم ولا سيما فى أخطر الأمور وأعظمها ، كابرام المعاهدات بين قوم وآخرين ، أو بين ملك ورعيته ، أو بين الناس بعضهم بعضاً ، ليكونوا على ثقة مما يبرمون فتطمئن نفوسهم.

ولقد عرف العرب قديماً القسم ، وكان محض احترام لديهم خاصة إذا كان المقسم معروفاً بالصدق غير مشهور بالمداهنة ، ومن ثم فقد عرفوا أن للقسم قدسية وجلالة لا يلجأ إليها العربى إلا إذا كان راغباً فى تأكيد وإيضاح ما انتوى الإلتزام به .

لذلك كانوا يقسمون بأكثر شئ قداسة لديهم ، فأقسموا بالله ، وبالكعبة وبشعائر الحج ، وبأصنامهم ، وبآبائهم ، وبأعمارهم وغير ذلك . (٢٠)

فلما جاء الإسلام حرم كل ذلك إلا القسم بالله أو بأسم من أسمائه أو بصفة من صفاته ، ووضع لذلك الحدود والكفارات ، فإذا حنث إنسان فى قسمه مع الله أو مع الغير ، فعليه الكفارة ، مع مراعاة إلا يكون اسمه – تعالى – وذاته وصفاته عرضاً لأيماننا فى كل شئ حتى ننأى بذاته الشريفة عن مواطن الشبه قال تعالى : ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ﴾ (البقرة : ٢٢٤) .

لذلك يجوز القسم عند الضرورة والحاجة إليه . ومن رحمة الله – تعالى – بعباده لا يؤاخذهم على الأيمان التى لم تنعقد بها نية بل جرت على اللسان من قبيل العادة فى التحاور ، فقال تعالى : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ (المائدة:(٨٩) . فالعرب عرفوا القسم واستخدموه فى كلامهم وأحكامهم ، فلما نزل القرآن بلغتهم وعلى ما ألفوه من أساليبهم ؛ ليكون مفهوماً لديهم حبيبا إلى نفوسهم ، حتى إذا ما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله ، كان ذلك عن أمر عرفوه وأسلوب ألفوه ؛ وإنما عجزوا لأنه تنزيل من حكيم حميد . فهو ليس من صنع البشر ، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر .

---

(٢٠) إمعان فى أقسام القرآن ١٢ بتصرف وتلخيص .

المبحث الثاني

أنواع القسم في القرآن الكريم

المتتبع لآيات القسم في كتاب الله – جل في علاه – يجد أنها تنحصر في أمرين [٢١]:-

الأول : ما أقسم الله – تعالى – به مما ورد في الكتاب العزيز .

الثاني : ما ورد على سبيل الحكاية ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين .

أولا : ما أقسم الله – تعالى – به مما اشتمل عليه القرآن :-

وهذا يتنوع إلى نوعين هما :-

النوع الأول : القسم الظاهر الصريح ، وهو ما يدور عليه محور البحث .

النوع الثاني : القسم المضمر .

وهذا التنوع يدل على بلاغة وعظمة القرآن الكريم ، حيث ورد فيه القسم ظاهراً ومضمراً تفنناً في الأسلوب ، وروعة في العبارة ، ومجاراة للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وخاصة الآيات المكية التي يبدو فيها القسم واضحاً جلياً ، لعل العرب يعون الأسرار في ذلك وبالمقسم عليه يؤمنون ويصدقون لأن ذلك الأسلوب يخالف ما درجوا عليه ويباين ما اشتهر بينهم من أقسام .

---

(٢١) يقول أهل اللغة : إن القسم على ضربين :-

١- قسم السؤال : ويسمى قسم الطلب أيضا : وهو ما كان جوابه متضمنا طلبا من أمر أو نهي أو استفهام ، وهو نحو قولك : بالله لتفعلن ، نشدتك الله إلا ما فعلت كذا .

٢- قسم الإخبار : وهو ما قصد به تأكيد جوابه ، كقولك : والله ما فعلت كذا وربي إن لصادق ، وعهد الله لأفعلن كذا .

انظر الأساليب الإنشائية في النحو العربي د / عبد السلام هارون ١٦٥،١٦٦

فالقسم الظاهر الصريح :-

هو ما ظهرت أركانه أو معظمها ، وهذا النوع هو الأعم الأغلب فى القرآن الكريم [٢٢] ، وقد جاء على صور متعددة منها على سبيل المثال :

قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (الواقعة : ٧٥ – ٧٦).

وقوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ *فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ* وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ* إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (الطور : ١– ٧)

وقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا ﴾(النور: ٥٣)

يقول الإمام ابن القيم : يقسم الله – سبحانه – بأمور على أمور ، فيقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته .

فالقسم إما على جملة خبرية – وهو الغالب – كقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾(الذاريات : ٢٣) .

وإما على جملة طلبية كقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الحجر : ٩٢ – ٩٣) مع أن هذا قد يراد به تحقيق المقسم عليه ، فيكون من باب الخبر ، وقد يراد به تحقيق القسم .

والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلابد أن يكون بما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها ، فأما الأمور الظاهرة المشهورة ، كالشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والسماء ، والأرض ، فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها .

فهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها ، فتارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة على أن الرسول حق ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، وتارة على حال الإنسان ، وهكذا .

---

(٢٢) المدخل لدراسة القرآن والسنة د / شعبان محمد إسماعيل ٥٠٢ بتصرف .

وهو سبحانه يذكر جواب القسم تارة ، وهو الغالب ، وتارة يحذفه [٢٣] ، وسوف يظهر ذلك بوضوح فيما سيأتى إن شاء الله .

ومن بلاغة وروعة الأسلوب القرآنى ، جاء القسم على أنحاء مختلفة وأشكال متنوعة ، منها على سبيل المثال :

١- تارة يتعدد المقسم به مع انفراد المقسم عليه ،كما فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ*وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ*وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ*قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾(البروج : ١-٤) .

٢- وتارة يتعدد المقسم به مع تعدد المقسم عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى : ١-٥) .

٣- وتارة ينفرد المقسم به مع تعدد المقسم عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى*مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى*وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى*عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾(النجم : ١-٥) .

٤- وتارة ينفرد المقسم به مع انفراد المقسم عليه ، كما فى قوله تعالى : ﴿**وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا** وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(سورة العصر).

٥- وتارة يأتى المقسم به وجوابه ، ثم يتبعه مقسم به آخر وجوابه فى نفس السورة ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ*إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾(الطارق ١-٤) . ثم جاء القسم الثانى وجوابه فى قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾(الطارق : ١١-١٢) .

٦- وتارة يأتى المقسم به ويحذف جواب القسم ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾(الفجر : ١-٥) . فجواب

---

(٢٣) التبيان فى أقسام القرآن ٦ ، ٧ .

القسم محذوف دل عليه سياق الآيات فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾(الفجر : ٦)، والتقدير :(لتحاسبن وليزلن بكم ما نزل بأسلافكم)[٢٤]

٧- دخول – لا – النافية على فعل القسم فى بعض المواضع ، كقوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة : ١-٢) .

النوع الثانى : القسم المضمر :-

وهو ما دل عليه مضمون الكلام ولم يذكر معه القسم صريحاً وله عدة صور منها :-

١- ما دلت عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القسم [٢٥] كقوله تعالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران : ١٨٦) ، فلفظ القسم وأداته غير موجودين فى الكلام ، ولكن علماء التفسير واللغة يقدرون فى الكلام قسماً مضمراً ويقولون (والله لتبلون) ويجعلون نون التوكيد قرينة على ذلك . [٢٦]

وقال تعالى : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ (يوسف : ٣٥) وقال تعالى : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾(الحج : ٤٠) فأدخلت اللام على نية اليمين ، والتقدير : والله .

٢ – ما دل عليه المعنى والسياق [٢٧] ، كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(مريم : ٧١)، وتقديره والله أى : والله ما من كافر إلا وارد جهنم .

---

(٢٤) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٣/٣٠ ، وروح المعانى للآلوسى ٢١٩/٦.

(٢٥) انظر : البرهان فى علوم القرآن ٤٣/٣ ، والمدخل لدراسة القرآن والسنة د/محمد شعبان٥٠٢.

(٢٦) انظر البرهان فى علوم القرآن ٤٣/٣ .

(٢٧) انظر البرهان فى علوم القرآن ٤٣/٣ .

فسياق الآيات الواردة قبل هذه الآية مؤكدة بالقسم الصريح الملفوظ وهو قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً*ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً*وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ (مريم : ٦٨- ٧١)، فدل القسم الصريح الملفوظ على القسم المضمر الملحوظ .

ثانياً : ما ورد على سبيل الحكاية ضمن ما قصه القرآن من قصص المخلوقين :-

وإليك نماذج منها :-

١- أقسام صادقة مثل التي صدرت عن الأنبياء والمؤمنين كقوله تعالى حكاية عن إبراهيم – عليه السلام – : ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء :٥٧) ، وكقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ (الصافات :٥٦) .

٢- أقسام كاذبة وهي التي نقلها القرآن عن الكفار والمنافقين كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾(الأنعام : ١٠٩) ، وكقوله تعالى حكاية عن قول المنافقين : ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(التوبة : ١٠٧) ، وكقوله تعالى عن آل فرعون : ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الأعراف : ١٣٤) .

٣- أقسام واردة على لسان أخوة يوسف – عليه السلام – منها : قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(يوسف : ٨٥) .

٤- قسم صادر من إبليس بعد طرده من رحمة الله بسبب اعتراضه وعدم استجابته لأمر الله ، وهذا عبر عنه القرآن في قوله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص : ٨٢ – ٨٣) ، وهذا النوع من القسم ورد كثيراً في القرآن الكريم . (٢٨)

****

(٢٨) انظر : أقسام القرآن د / محمد محمد السيد عوض ص ٣٧ .

المبحث الثالث

الشبهات الواردة حول أقسام القرآن والرد عليها

لقد دأب أعداء الإسلام قديماً وحديثاً على تصويب السهام المغرضة ضد الإسلام وكتابيه القرآن والسنة ، ونذروا أنفسهم كيداً للدين ، وحرباً لاتباعه ، فمنهم قديماً المستشرقون ، وحديثاً أهل الحداثة والعلمانيون الذين لا يعلون ولا يكلون من توجيه كلماتهم المسمومة وشبهاتهم المزعومة للطعن فى الدين ، لذلك فقد ورد عنهم خمس شبهات حول أقسام القرآن الكريم ، سوف اذكرها وأقوم بتفنيدها والرد عليها من خلال أقوال العلماء حتى يتبين الحق من الباطل ، ويتميز الغث من السمين .

١- الشبهة الأولى :-

وفحواها أن القسم من الله – تعالى – إن كان مقصوداً به المؤمنون فهم مصدقون بدون قسم ، وإن كان المقصود به الكافرين فلا فائدة من وراء القسم لهم ، فكيف هذا ؟ وما الفائدة من القسم إذاً ؟ (٢٩).

الرد على هذه الشبهة :-

ولقد رد على هذه الشبه العلماء الأجلاء ، وعلى رأسهم صاحب الإتقان فقال ما ملخصه : إن القرآن الكريم نزل بلغة عربية سليمة ، ومن عادة العرب أن أرادت أن تؤكد أمراً أقسمت عليه سواءً أكان المخاطب معانداً أو غير معاند .

وقال أبو القاسم القشيرى : إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يفصل باثنين : إما بالشهادة ، وإما بالقسم ، فذكر سبحانه فى كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة فقال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾(آل عمران : ١٨)، وقال :

---

(٢٩) انظر البرهان للزركشى ٣/٤١ ، والإتقان للسيوطى ٢/١٦٩ .

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (يونس : ٥٣)، ففى الآية الأولى : فصل الحكم وقرره بالشهادة ، وفى الآية الثانية : قرره وأكده بالقسم . (٣٠)

والواقع أن ما ذكره السيوطى وغيره يكمل بعضه بعضاً ، فالقرآن قد راع حالة العرب فى القسم ، ويقسم أيضاً لتكون الحجة عليهم كاملة والدليل عليهم واضحاً .

ويقول الإمام الرازى عند تفسيره لسورة الذاريات : إن الأيمان التى حلف الله بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان ، مثل قول القائل لمنعمه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم ، وكذلك هذه الأشياء كلها (أى : التى أقسم بها فى أول الذاريات) دليل على قدرة الله – تعالى – على الإعادة .

فإن قيل : فلم أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول : لأن الإنسان إذا شرع فى أول كلامه يحلف ليعلم السامع أنه يريد أن يتكلم لكلام عظيم فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين ، حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين فى صورة اليمين . (٣١)

ومن خلال ما سبق يتبين أن الأقسام فى القرآن لم تأت فقط لتأكيد الكلام وتقويته فحسب – كما ظن أصحاب هذه الشبهه – ولكنها فى الحقيقة ركزت تركيزاً مباشراً بأسلوب بليغ على الأدلة الكثيرة المتنوعة الشاهدة بوحدانية الخالق وابداعه فى كونه ، لعل هؤلاء الكفرة ينتبهون وبالله الواحد يؤمنون وبالقرآن العظيم يصدقون ، قال تعالى : ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾(الأنعام : ٦٥)، فإذا تم الفقه والنظر والاعتبار تكون الفائدة العظمى لهؤلاء الكفار ، ويكون الثبات واليقين للمؤمنين .

---

(٣٠) الإتقان ١٦٩/٢ بتصرف وتلخيص .

(٣١) التفسير الكبير للإمام الرازى ١٩٤/٢٨ .

يضاف إلى ذلك : أن الله – تعالى – قد عرض الأدلة والبراهين بأسلوب القسم العظيم الدال على إعجاز وبلاغة القرآن الكريم لحكم عظيمه وأسرار جليلة سنذكرها فى نهاية البحث – إن شاء الله تعالى – .

٣- الشبهة الثانية :-

يقول مروجوها : لماذا أقسم الله – جل فى علاه – بمخلوقاته وحرم على عباده القسم بغير أسمائه وصفاته ؟ .

الرد على هذه الشبهة :-

أجاب العلماء والمفسرون على ذلك بأجوبة كثيرة :-

- منها : ما ذكره الإمام السيوطى حيث قال : أن الأقسام إنما تكون بما يعظمه المقسم أو يجله وهو فوقه ، والله تعالى ليس شئ فوقه ، فأقسم تارة بنفسه ، وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئها وصانعها ، ولذلك قال ابن أبى الأصبع فى أسرار الفواتح : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل ، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل .

- ومنها : ما ذكره أبو القاسم القشيرى حيث قال : القسم بالشئ لا يخرج عن وجهين : إما لفضيلة ، أو لمنفعة ، فالفضيلة كقوله تعالى : (وطور سنين وهذا البلد الأمين) ، والمنفعة نحو (والتين والزيتون) .

- ومنها : ما ذكره الإمام الحسن البصرى حيث قال : إن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله[٣٢] ولذلك قال بعض العلماء : إن الله عندما يقسم بمخلوقاته فإنما يقصد بقسمه رفعة شأنها ومكانتها وإعلاء قدرها وقدر خلقها على النحو الذى هى عليه للدلالة بها على مطلق قدرته مثل قوله : (والسماء وما بناها) .

---

(٣٢) انظر الإتقان ٢/١٧٠ ، والبرهان : ٣/٤٣ .

- ومنها : ما ذكره لبيد حيث قال : إن العرب كانت تقسم ببعض من هذه الأشياء قديما فنزل القرآن على ما يعرفون وإن كان مدلول القسم قديماً يختلف عن مدلول القرآن حيث كانوا فى ظنهم على أنها آلهة مستقلة أو رموز لها يتقربون بها إلى الخالق ، إلا أن القرآن أرجع الأمور إلى نصابها الحقيقى بتبيان نسبة العظمة فى المخلوقات لا إليها بذاتها وبما حوته وإنما بمن صنعها وألزمها ناموسه لا تخرج عنه(٣٣) .

- ومنها : أن أقسام القرآن لا تكون للتعظيم إلا إذا كان المقسم به هو الله – تعالى – وشعائره . وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال.

- ومنها : ما قاله العلماء : أن الله – تبارك وتعالى – قد أقسم بالنبى ﷺ فى قوله : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر : ٧٢) لتعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه

لكن الإمام ابن القيم عندما يعرض لمسألة القسم يوضح أمر لا يجب علينا أن نجهله حيث يقول : (إنه يقسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها) ويستتبع ذلك أن يقسم بالنبى الذى جاء بها . (٣٤)

ويقول الإمام السيوطى : القسم بحياة الرسول الكريم ﷺ فيه كرامة له ، لأنه أقسم بحياة رسوله ، ولم يقسم بحياة أحد غيره. (٣٥)

ومما سبق نخلص إلى الآتى :-

أن الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله ، فأقسم سبحانه بمخلوقاته لأنها تدل دلالة قاطعة ، وتبرهن برهنة ساطعة على وحدانيته وقدرته وبديع صنعه ،

---

(٣٣) من علوم القرآن د / فؤاد على رضا ص ١٦٧ .

(٣٤) انظر التبيان لابن القيم ١٠ .

(٣٥) انظر معترك الأقران ١٩٩/٢ .

وللإشارة إلى فضل هذه المخلوقات ومنفعتها لبنى الإنسان لكى يتعظوا ويتذكروا آلاء الرحمن وما منّ به عليهم من النعم والإحسان فيقابلوا ذلك بالشكر والعرفان بدلاً من الجحود والنكران .

ولما كان أساس القسم قائماً على تعظيم المقسم به ، والتعظيم لا يكون إلا لله ، من أجل ذلك حرم الإسلام على العباد القسم بغير الله ، لقوله ﷺ فى الأحاديث الصريحة الصحيحة ، كما جاء فى البخارى عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – : " أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير يحلف بأبيه فقال : ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت " (٣٦)

وروى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أيضا قال : قال رسول الله ﷺ " لا تحلفوا بآبائكم " . (٣٧)

وروى عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقول : لا والكعبة ، فقال : لا تحلف بغير الله ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) (٣٨).

والتعبير بقوله فقد كفر أو أشرك للمبالغة فى الزجر والتغليظ وقد فصل العلماء ذلك فقالوا : إن اعتقد الإنسان فى المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده فى الله حرم الحلف به وكان بذلك الاعتقاد كافراً ، وعليه يتنزل الحديث المذكور ، وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به على ما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك ولا تنعقد يمينه .

وروى عن الشعبى أنه قال : فالخالق يقسم بما شاء من خلقه والمخلوق لا يقسم إلا بالخالق ، قال : ولأن أقسم بالله فأحنث أحب إلى من أن أقسم بغيره فأبر ، وجاء مثله عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر . (٣٩)

---

(٣٦) صحيح البخارى – باب لا تحلفوا بآبائكم ١٥١/٤ ط دار الحديث ، وصحيح مسلم بشرح النووى كتاب الأيمان ١٦٦/١ ، ١٦٧ .

(٣٧) السابق نفسه .

(٣٨) انظر : المرجع السابق ٥٤٠/١١ ، ٥٤٤ .

(٣٩) انظر المرجع السابق ٥٤٠/١١ ، ٥٤٤ .

أما ما ورد من إشكال عند البعض فى فهم الحديث الصحيح الوارد عن النبى ﷺ عندما قال : للرجل النجدى الذى أقسم على أداء الفرائض الصلاة والزكاة والصيام أفلح وأبيه إن صدق " (٤٠).

فهذا لا إشكال فيه ، لأن هذا اللفظ لا يقصد منه تعظيم أبى الصحابى ، وإنما جاء لتقوية الكلام فقط ، فكان جرياً على اللسان من غير إرادة يمين ، والنهى إنما ورد فى حق من قصد حقيقة الحلف (٤١) .

أما ما قيل أن النبى ﷺ قال ذلك للصحابى قبل تشريع هذا النهى الحاسم ، فغير قوى إذ لم يعرف عن النبى ﷺ تعظيم غير الله فى الجاهلية أو الإسلام . (٤٢)

يضاف إلى ذلك أن الألفاظ الصريحة الصحيحة الواردة عن النبى ﷺ إذا أقسم هى :-

١- والذى نفسى بيده ، وكذا نفس محمد بيده .

٢- لا ومقلب القلوب .

٣- والله .

٤- ورب الكعبة . (٤٣)

٣- الشبهة الثالثة :-

مضمونها أن الذى يلجأ إلى القسم متهم فى صدقه مفتقر إلى تأييد دعواه ، وقد ذم القرآن كثرة الحلف فقال : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ (القلم : ١٠)، فجعل كثرة الحلف من الخلال المذمومة والصفات المرذولة ، ومن هذا المنطلق فلا يليق بجلال الله أن يقسم .

---

(٤٠) شرح النووى على صحيح مسلم : كتاب الإيمان – باب الصلاة ١٧١/١ .

(٤١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥٤٢/١١ بتصرف .

(٤٢) انظر المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية د / شعبان محمد اسماعيل ٥٠٣ : ٥٠٥ .

(٤٣) انظر فتح البارى : كتاب الأيمان – باب كيف كانت يمين النبى ﷺ ٥٣٤/١١.

الجواب :-

أنه ليس هناك وجه للمقارنة بين الأقسام التى أقسم الله – تعالى – بها فى كتابه الكريم ، وبين الذم الوارد لمن يكثر الحلف ويهين نفسه ويحتقرها ويضع من قدرها لأنه يدارى كذبه ونفاقه بهذا الستار السيئ من الأيمان الكاذبة الفاجرة ، ولهذا وصف بأنه "مهين " .

يقول الإمام الرازى : قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين) أى كونه حلافاً ، والحلاف من كان كثير الحلف فى الحق والباطل ، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ، ومثله قوله : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾(البقرة : ٢٢٤) وكونه مهيناً من المهانة وهى القلة والحقارة فى الرأى والتمييز لأنه يحلف فى الكذب ، والكذاب حقير عند الناس ، وكونه حلافاً يدل على أنه لا يعرف عظمة الله تعالى وجلاله ، إذ لو عرف ذلك لما أقدم فى كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته ، ومن لم يكن عالماً بعظمة الله وكان متعلق القلب بطلب الدنيا كان مهيناً ، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية ، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية . (٤٤)

فالحلف ليس على إطلاقه مذموم ولكن ينصرف الذم إلى من يكثر الحلف فى كل صغير وكبير وحقير وعظيم فيضطر إلى الكذب وبالتالى تفقد الثقة فيه لمظنة الكذب فيصبح لا قيمة ولا وزن له فى مجتمعه ولا بين أهله واصحابه .

وبالمقارنة بين هذا الحلف ، وبين الأقسام الواردة فى القرآن نجد أن هذه المقارنة فاسدة وباطلة وغير لائقة ، ولا تصلح نهائياً مع الذات العلية للأمور الآتية :-

١- ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(الآنبياء : ٢٣) فالعبد عبد والرب رب سبحانه جل فى علاه .

٢- لله أن يقسم بما شاء وكيفما شاء وبأى شئ شاء وليس لأحد أن يقسم إلا بالله لأن القسم تعظيم والتعظيم لا يليق إلا برب العالمين .

---

(٤٤) التفسير الكبير ٣٠/٨٣ ، ٨٤ .

٣- إذا أقسم الله – عز وجل – بذاته فذلك للتعظيم ، وإذا أقسم بمخلوقاته فذلك لمحض الاستدلال وإقامة الحجج والبراهين على قدرة الخالق العظيم ووحدانيته وجليل أفعاله وعظيم شأنه .

٤- هناك حكم جليله ، واسرار كثيرة فى العلاقة بين الأمور التى أقسم الله بها وأقسم عليها ، ليلفت العقول والأبصار إلى إعجاز القرآن وإلى عظمة الواحد القهار إذ إنه يبين لنا أن القسم لا يكون إلا فى عظائم الأمور وبصدق نيه وإخلاص طويه.

٥- أقسم الله – عز وجل – فى قرآنه الكريم لأن القسم من عادة العرب فإذا أرادوا توكيد أمر أقسموا وذلك لإفحام الخصم وإقامة ما يريدون من توثيق معاهدة أو إثبات حق ، فلا غرو أن يوافقهم القرآن على الصالح من أعمالهم وأقوالهم دون ما سواها من ذميم الصفات ومنكرات الأفعال .

٤- الشبهة الرابعة :-

وقد ذكرها الأستاذ عبد الوهاب حمودة عن العالم نولدكه فى دائرة المعارف البريطانية ، وفى كتابه " تاريخ القرآن " حيث قال : " كان غرض محمد الوحيد فى السور المكية تحويل الناس بطريق الإقناع عن عبادة الأصنام الباطلة إلى عبادة إله واحد ، وهذا هو الهدف الأساسى فى دعوته مهما تشعب الموضوع ، إلا أن محمداً بدلاً من أن يتوجه إلى عقول سامعيه يقنعها بالبراهين المنطقية لجأ إلى الفن الخطابى ليؤثر على عقولهم من طريق الخيال والوجدان "[٤٥] .

الرد على هذه الشبهة :-

يقول الأستاذ / عبد الوهاب حموده : نحن نعرف أنه من الأسلوب الخطابى الاستدلال بالحلف والأيمان وهذا خطأ من نولدكه فى زعمه هذا من أن القرآن المكى خلو من الحجاج

---

(٤٥) اسرار القسم فى القرآن الكريم للأستاذ عبد الوهاب حموده فى مجلة الأزهر رمضان عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩ م. ص ٧٢٤ .

بالبراهين العقلية والمناقشة بالأدلة المنطقية ، وقد روج هذا الزعم بعض الباحثين المعاصرين على غير أساس فى بحثهم ، وتثبت من قولهم .

فقد جاء فى القرآن المكى الإقناع بالحجة والجدل والبرهان ولا سيما فى السور الأخيرة من العهد المكى ، ورسم القرآن للنبى ﷺ أساليب الدعوة فهى تختلف باختلاف من يدعوهم ، قال تعالى فى سورة النحل وهى مكية : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل: ١٢٥)

فوضحت الآية أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم ، وبالمجادلة قوم .

وقد جاء القسم فى القرآن الكريم فاتحة السور المكية خاصة فى خمس عشر سورة نحو (والسماء والطارق ، والفجر ، والضحى ، والعصر وغيرها) ووقوع القسم فى ابتداء السورة له أثره النفسى ؛ فإن البدء به هو جذب لانتباه السامع ؛ لوقوع القسم على سمعه فى شئ من الرهبة ، فإذا حدث ذلك صحبه تهيؤ نفسى لتلقى ما يقال . خصوصاً وأن ما يقال مبنى على القسم ، والقسم شئ يهول ، وفى هذه الحال يكون الإنسان أشد تأثيراً بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد من طريق الجدل والنقاش ؛ لأن الإقناع العقلى فيه انتصار حاد لعقل على آخر ، ومن الصعب على النفوس الجامحة العقيدة ، كنفوس العرب فى جاهليتهم أن تقر لأحد المجادلين بالغلبة أو تسلم له بالانتصار عن طريق الإفحام ، بل كثيراً ما يكون السامع غير عارف بأصول الإقناع العقلى ؛ فلا فائدة إذن من فتح هذا الباب أمامه والدخول عليه من هذا الطريق الذى يجهله .

فالقسم فى أوائل السور يعطيها نضرة فى بهجتها ، ورونقاً فى ديباجتها فتلمع الأقسام فى قسمات السور ، كالغرة البارقة بل هى أشبه شئ بالمطالع الحسنة فى القصيدة الجيدة ، وفى هذا رعاية لجانب المستمع لكيلا ينفر فيسد أذنيه .

ومن كمال الحجة تليين القول وتأليف القلب فقد أمر الله الأنبياء بهذا كما قال تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون[٤٦] ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(طه : ٤٤).

٥- الشبهة الخامسة :-

وقد عاب الناقد [٤٧] القسم المكى بأنه يقسم بالشمس والقمر والنجوم ، والفجر ، والضحى ، والعصر ، والليل ، والنهار ، والتين ، والزيتون ، وزعم أن هذا جدير بالبينات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً . [٤٨]

الرد على هذه الشبهة :-

يقول د / محمد أحمد عرفه : وليس الأمر كما زعم – صاحب الشبهة – فإن الله أقسم بهذه الأشياء ليبين لهم مكانتها وعظم نفعها ، ونعمة الله عليهم فيها ، فهى جليلة النفع عظيمة الخطر ، حتى استحقت أن يقسم الله بها ، ولعل الناقد قد توهم ذلك من القسم بالتين والزيتون فالتبس الأمر عليه ولبس على الناس ، وأوهمهم أن هذا قسم بالمطعوم والمأكول وذلك شأن البينات الجاهلة الساذجة .

ونحن نرى أن هذا قسم بمنابت التين والزيتون وهى بعض بقاع الشام ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ، ومولد عيسى ومنشؤه ، فالكلام على حذف مضاف، أى ومنبت التين والزيتون ، وإنما قلنا ذلك ليتناسب مع ما بعده وهو طور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لأن المراد بهما أيضا بقاع ، فالطور هو المكان الذى نودى منه موسى ، والبلد الأمين مكة وهى مكان البيت الذى هو هدى للعالمين ، ومولد نبينا ومبعثه ﷺ .

---

(٤٦) اسرار القسم فى القران الكريم ص ٧٢٥ .

(٤٧) الناقد : هو د / طه حسين قال ذلك فى محاضراته لطلبة كلية الآداب فى الجامعة المصرية ورد عليه د/ محمد أحمد عرفه .

(٤٨) انظر نقض مطاعن فى القرآن الكريم بقلم د / محمد أحمد عرفة ص ٦٩ .

وإنما أقسم الله بهذه الأشياء ليبين شرف هذه البقاع المباركة التى انبثق منها نور النبوة والهدى على العالمين ، وأن لهذه الأماكن فى نفوس المؤمنين والمتدينين من يهود ونصارى منزلة لاتشابهما منزلة.

وإضافة إلى ما ذكر أقول : إن الشبهة مردودة رأساًعلى عقب للأمور الآتية :-

١- أن ما قاله الناقد من أن البيئة فى مكة كانت فى تأخر وانحطاط ليس صحيحاً بل العكس تماماً لأن البيئة العربية فى مكة كانت فى أرقى مراتب البلاغة ، وأعلى درجات الفصاحة والبيان ، وأكبر دليل على ذلك نزول القرآن بلغتهم فخاطبهم بما يعرفون ويألفون ، وكان القسم معلوماً لديهم يؤكدون به كلامهم وعهودهم ، فجاءت آيات القسم وفقاً لما ألفوه ليكون مفهوماً لديهم ، ومؤثراً فى مشاعرهم وعقولهم ولذلك ذكر الزركشى رواية عن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ*فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (الذاريات ٢٢- ٢٣) ، فطرح وقال : من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجاه إلى اليمين ؟ قالها ثلاثاً ثم مات . (٤٩)

٢- ما قاله الناقد من أن القسم المكى جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً ، فهذا باطل ولا يصلح بأى حال من الأحوال لأنه طعن فى القرآن لأنه يفهم من كلامه أن القسم المكى لا يصلح للبيئات المتقدمة المتحضرة ، والقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٣- أن الله – عز وجل – أقسم بهذه الأشياء العظيمة الشأن الجليلة القدر لدلالتها على وحدانية وقدرة خالقها ، ولمنافعها وفوائدها لبنى الإنسان فى كل زمان ومكان ، لأن عطاء القرآن لا ينفد ومعجزاته وأسراره الباهرة لا تنقطع ، وأكبر دليل على ذلك ما وصل إليه العلم الحديث من أمور مبهرة واكتشافات مذهلة تحدث عنها القرآن منذ أربعة عشرا قرناً وستظل هناك أسراراً عديدة يكتشفها أهل كل زمان على ما يتوفر لديهم من امكانيات وتطورات .

---

(٤٩) البرهان فى علوم القرآن ٣/٤١ .

وهذا من إعجاز القرآن لأنه يتناسب تماماً مع كل العصور على مر الدهور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٤- إن هذا الناقد يصف الله – تعالى – بأنه يقسم للمنحطين المتأخرين فكأنه – والعياذ بالله – ليس برب ، وليس بمالك للسماء والأرض وليس بيده أزمة الأمور وهو القائل : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فوظيفة الله – جل في علاه – عند هذا الناقد أنه يخاطب المحتقرين منهجاً وأسلوباً ، والمنحطين مبنى ومعنى ، فماذا أقول عن عميد العربية الذى لا يحسن كيف يخاطب ربه ، ولا يتعامل مع منهجه .

وفى نهاية الأمر أقول : لعل هذا الناقد قد أخطا ، أو خانه التعبير أو جانبه الصواب ، فى التعبير بهذه الألفاظ اتى لا تليق بكلام رب العباد فأسال الله – عز وجل – العفو والمغفرة لنا وله ولجميع المسلمين ، وبذلك يكون قد تم – بفضل الله – الرد على هذه الشبه ولله الحمد والمنة .

****

الفصل الثانى

أركان القسم فى القرآن الكريم

للقسم فى القرآن الكريم وغيره أركان [٥٠] يتكون منها وهى :-

الركن الأول : المقسم .

الركن الثانى : أدوات القسم .

الركن الثالث : المقسم به .

الركن الرابع : المقسم عليه .

---

(٥٠) يقول أهل اللغة فى الجمل القسمية : للقسم جملتان بمنزلة جملة واحدة ، كما أن جملتى الشرط والجزاء بمثابة جملة واحدة ، فللقسم جملة شرط وجملة جواب ، وجملة القسم إما أن تكون فعلية ، وإما ان تكون اسمية ، فالفعلية كقولك : أقسم بحقك لأفعلن كذا ، فجملة أقسم بحقك هى جملة القسم ، وجملة لأفعلن كذا جواب القسم .

وجملة القسم الاسمية ضربان : -

١ - الضرب الأول : ما صدر بلفظ خاص بالقسم لا يكون فى غيره كأيمن الله ، ولعمرك ، وهذا يجب حذف خبره ، والتقدير : قسمى .

٢- والثانى : ما صدر بلفظ غير خاص بالقسم ، كأمانة الله ، وعهد الله ، وهذا يجوز حذف خبره وإثباته .

وإذا اجتمع الشرط والقسم ، كان الجواب للمتقدم منهما ، ويغنى عن جواب الآخر ، فإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وغنى عن جواب الشرط كقوله تعالى : (لئن لم تنته لأرجمنك) إذ التقدير : والله لئن لم تنته .

انظر : الأساليب الأنشائية فى النحو العربى لعبد السلام محمد هارون : ١٦٦ ، والكامل فى النحو والصرف د / على محمود النابى ص ٦٧١ ط دار الفكر .

المقسم وأدوات القسم

أولا : المقسم :-

يصدر القسم من الله – سبحانه – ومن العباد ، فإذا كان من الله ، فله أن يقسم بما شاء ، وكيفما شاء ، بذاته أو بصفة من صفاته ، أو بفعل من أفعاله ، أو ببعض مخلوقاته ، وسوف أبين ذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث – إن شاء الله – . أما إذا كان القسم من العباد فلا يجوز لهم القسم إلا بالله أو بصفة من صفاته ، لأن القسم يدل على التعظيم ، والتعظيم لا يكون إلا الله – جل فى علاه – .

ثانياً : أدوات القسم :-

وهى الحروف التى تأتى بعد فعل القسم وتدخل على المقسم به ، والصيغة الأصلية هى : " أقسم " أو " أحلف " ، والمشهور من حروف القسم ثلاثة هى : الباء ، والواو ، والتاء وتدل هذه الحروف على المعية وضم الشئ بالشئ ودور أداة القسم فى جملة القسم أنها تلصق فعل القسم بالمقسم به كما يقول علماء اللغة وإليك توضيح ذلك :-

أولاً : حرف الباء :-

وهو الأصل فى القسم ، ويؤيد ذلك ما يلى :-

أ – جواز إثبات فعل القسم وفاعله معها كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾(النحل : ٣٨) أو حذفهما كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الأعراف: ١٦) .

ب- دخولها على المظهر والمضمر ، ولا يدخل من حروف القسم غيرها على المضمر ومن شواهد دخولها على الاسم الظاهر [٥١] قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾(النمل ٤٩) أما دخولها على المضمر فلا دليل فى القرآن عليه وهو كقولك : " أقسم بالله إنى لصادق " .

جـ - تستعمل فى القسم المقصود به الطلب ، أو المقصود به الاستعطاف ، كقوله ﷺ : (اللهم بعلمك وقدرتك على الخلق أحيينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى ما كانت الوفاة خيراً لى) فبهذا صارت الباء أم الباب لأنها الأصل فى القسم ، فهى حرف الجر الذى يعدى به الحلف يقال : أحلف بالله ، وأقسم بالله ونحو ذلك . [٥٢] .

ثانياً : حرف الواو :-

تأتى الواو لعدة استعمالات من أشهرها القسم ، ويلاحظ فى القسم بها ما يلى :-

أ - لما كثر استعمال القسم بالواو حذف فعل القسم وجوباً للتخفيف فلا يقال : أقسم والله .

ب - تدخل الواو على المقسم به الظاهر كقوله تعالى : (والطور) (والضحى) ولا تدخل على المقسم به المضمر ، فلا يقال " وك " كما يقال أقسم بى وبك .

جـ - لا تستعمل الواو فى قسم قصد به السؤال ، فلا يقال : والله أخبرنى كما يقال : بالله أخبرنى .

د - القسم بالواو فى القرآن أكثر من القسم بالباء والتاء . [٥٣]

---

(٥١) انظر سيبويه تحقيق عبد السلام هارون ٤٩٦/٣ ، وشرح الرضى على كافية ابن الحاجب ٣٠٩/٤ ، ٣١٠ .

(٥٢) انظر : الأساليب الأنشائية فى النحو العربى ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٥٣) انظر : ابن يعيش شرح المفصل ٣٣/٨ - ٣٤ ، ٩٩/٩ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٠٩/٤ .

ثالثاً : حرف التاء :-

وهو مختص بالدخو على حرف الجلالة ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(يوسف : ٨٥) ، والتاء ليست أصيلة فى القسم ، ولكنها بدل عن الواو لأن بينهما تقارب فكلاهما من حروف الهمس ، ونظراً لكونها بدلاً من الواو كانت لها خصائصها إلا فى دخولها على لفظ الجلالة .[٥٤] كذلك لا تدخل التاء إلا على أمر عجيب مستغرب .[٥٥]

وقد تحذف أداة القسم مع فعل القسم والمقسم به ، ويدل على ذلك حرف اللام المتلقى به القسم وقد ورد ذلك فى القرآن كثيراً ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر : ٨٧) .

وكذلك فعل القسم يحذف كثيراً ، وقد وضح ابن القيم علة ذلك بقوله : والقسم لما كان يكثر فى الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ، ويكتفى بالباء ، ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة . والتاء فى أسماء الله .[٥٦] ، كقوله تعالى : ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾(الأنبياء : ٥٧) .

ويقول الإمام الزركشى : " أكثر الأقسام المحذوفة الفعل فى القرآن لا تكون إلا بالواو ، فإذا ذكرت الباء تأتى بالفعل كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾(النحل : ٣٨) ، وقوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾(التوبة : ٦٢) ، ولا تجئ الباء والفعل محذوف إلا قليلاً [٥٧].

وعليه حمل بعضهم قوله : ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ (لقمان : ١٣) وقال : الباء باء القسم وليس متعلقة بـ (تشرك) وكأنه يقول : (يا بنى لا تشرك) .

---

(٥٤) انظر : ابن يعيش شرح المفصل ٣٣/٨ - ٣٤ ، ٩٩/٩ ، وشرح الرضى على الكافية ٣٠٩/٤ .

(٥٥) التحرير والتنوير لابن عاشور ٤٥/١٣ .

(٥٦) انظر التبيان فى أقسام القران ٧ .

(٥٧) البرهان فى علوم القرآن ٤٣/٣ ، ٤٤ .

الفصل الثالث

المقسم بـه

من يقرأ القرآن بتدبر وروية وإخلاص نية وإصلاح طوية ، يرىأن الخالق – سبحانه وتعالى – قد أقسم بذاته المقدسة ، وبصفاته العلا ، وبآياته الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته ، وأقسم بالقرآن الكريم تعظيماً لكلامه ، كما أقسم بنبيه تشريفاً له في بعض آياته ، كما أقسم ببعض مخلوقاته لمنفعتها وفضلها ، وللوقوف على مواطن العظة والعبرة فيها .

وإليك التفصيل والبيان لما ذكرته لتوضيح المقسم به في القرآن الكريم .

ويشتمل هذا الفصل على تسعة مباحث هي :-

المبحث الأول : القسم بذاته – سبحانه – وبالقرآن ، وبالنبي ﷺ وبالملائكة والقلم .

المبحث الثاني : القسم بعالم الإنسان ، والحيوان، والنبات .

المبحث الثالث : القسم بالسماء وما فيها .

المبحث الرابع : القسم بالأرض وما فيها .

المبحث الخامس : القسم بالزمان .

المبحث السادس : القسم بالمكان .

المبحث السابع : القسم بصيغة العموم .

المبحث الثامن : أقوال العلماء في المقسم به المقترن " بلا النافية " .

المبحث التاسع : وقفات حول المقسم به .

***

المبحث الأول

القسم بذاته -سبحانه- وبالقرآن

وبالنبي ﷺ وبالملائكة وبالقلم

أولاً: القسم بذاته المقدسة -سبحانه وتعالى-:-

لقد أقسم الله بذاته المقدسة في غير ما آية، منها القسم بذاته الموصوفة بالربوبية، ومنها القسم بلفظ الجلالة، ومنها القسم ببعض صفاته، وإليك بيان ذلك:-

أ- القسم بذاته الموصوفة بالربوبية:-

وقد ورد ذلك في مواضع تسعة من كتابه الكريم [٥٨] منها ما صدر القسم فيها من الله -سبحانه وتعالى- وذلك في خمس آيات

١- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر ٩٢: ٩٣)

٢- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾ (مريم: ٦٨).

٣- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (الذاريات: ٢٣).

٤- قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (المعارج ٤٠: ٤١).

٥- قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (النساء: ٦٥).

---

(٥٨) انظر أقسام القرآن للدكتور / محمد محمد السيد عوض ص ٧٠.

ومنها ما أمر الله نبيه ﷺ فيها بالقسم بربه وذلك فى ثلاثة مواضع:

١- قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (يونس :٥٣).

٢- قوله تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّأُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن : ٧).

٣- قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ (سبأ : ٣).

ومنها ما صدر القسم فيها من المشركين يوم القيامة وذلك فى موضع واحد هو : قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأحقاف : ٣٤).

ب - القسم بلفظ الجلالة :-

ورد القسم بلفظ الجلالة فى واحد وعشرين موضعاً [٥٩] من هذه الأقسام ما صدرت من الله - سبحانه وتعالى - وذلك فى موضعين :-

١- قوله تعالى:﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النحل : ٦٣).

٢- قوله تعالى :﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾(النحل ٥٦)

ومنها : ما صدر فيها من المشركين ... وذلك فى خمسة مواضع هى :-

١- قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾(الأنعام:١٠٩).

---

(٥٩) انظر أقسام القرآن للدكتور / محمد محمد السيد عوض ص ٧٢ .

٢- قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ٣٨).

٣- قوله تعالى ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (الشعراء : ٩٦ ٩٧).

٤- قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ (فاطر : ٤٢).

٥- قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾(النمل ٤٩).

ومنها : ما وقع القسم من المنافقين وذلك فى ستة مواضع هى :-

١- قوله تعالى : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ (التوبة : ٤٢) .

٢- قوله تعالى : ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (التوبة : ٥٦)

٣- قوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(التوبة٦٢)

٤- قوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (التوبة :٧٤) .

٥- قوله تعالى : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ (التوبة : ٩٥) .

٦- قوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا﴾ (النور :٥٣) .

ومنها : ما ورد القسم فيها من اخوة يوسف – عليه السلام – وذلك فى أربعة مواضع هى :-

١- قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (يوسف:٧٣) .

٢- قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(يوسف:٨٥)

٣- قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(يوسف:٩١)

٤- قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾(يوسف:٩٥) .

منها : ما حكى فيها القسم عن أصحاب الجنة وذلك فى موضع واحد هو :

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ* قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾(الصافات:٥٤ - ٥٦) .

ومنها : أمر فيها بالقسم على سبيل التشريع وذلك فى موضعين (٦٠)

١- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾(المائدة:١٠٦) .

٢- قوله تعالى : ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:١٠٧) .

جـ - القسم بأسمائه - تبارك وتعالى - :-

وقد وقع القسم بالحق وهو من أسمائه - سبحانه - وقد ورد ذلك فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ* لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص:٨٤-٨٥) .

---

(٦٠) انظر أقسام القرآن للدكتور / محمد محمد السيد عوض ص ٧٤ .

د - القسم بصفة من صفاته -جل في علاه -:-

وقد ورد ذلك في موضع واحد على لسان إبليس عندما أمره الله بالسجود لآدم فأبى فطرده الله من رحمته،فقال﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(ص٨٢-٨٣)

ثانياً : القسم بالقرآن الكريم :-

أقسم المولى - عز وجل - بقرآنه الكريم في ستة مواضع كلها جاءت في سور مكية ، ومسبوقه بالحروف المقطعة ما عدا سورة الطور فهي مكية ولم تسبق بشئ من هذه الحروف ، وقد ورد القسم في هذه السورة بلفظ القرآن تارة وبلفظ الكتاب تارة أخرى وإليك بيان ذلك :-

١- القسم بالقرآن على صدق رسالة النبي ﷺ :-

قال تعالى : ﴿يس *وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(يس: ١-٤) .

٢- القسم بالقرآن على صدق القرآن :-

قال تعالى : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(ص: ١-٢) .

٣- القسم بالقرآن على إنزاله بلغة العرب :-

قال تعالى : ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ١-٤) .

٤- القسم بالقرآن على تكريم الزمن الذى أنزل فيه :-

قال تعالى : ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ١-٤)

٥- القسم بالقرآن على إثبات البعث :-

قال تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ* بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ* أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(ق: ١-٣) .

٦- القسم بالقرآن وأشياء أخرى على إثبات المعاد والجزاء :-

قال تعالى : ﴿وَالطُّورِ* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ* فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ* وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ* إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾(الطور: ١-٧) .

ومن خلال ما سبق يتبين بأن الله – عز وجل – أقسم بالقرآن تعظيماً لشأنه ورفعاً لقدره ، وبياناً لمكانته لأنه كلام رب العالمين ، ولذلك وصفه بأوصاف كثيرة للتشريف والتكريم ، ومن الحكم البليغة أن سبق القسم بالقرآن حروف التهجي التى جاءت للتحدى والإعجاز يقول ابن كثير وغيره من المفسرين : ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته ، مع الرغم أنه مركب من هذه الحروف التى يتخاطبون بها ، ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته (٦١).

ويرى بعض العلماء : أن الحروف التى وردت فى فواتح بعض السور ، والتى أقرنت بذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل ، أقسام أقسم الله – تعالى – بها .

ثالثاً : القسم بحياة النبى ﷺ :-

أقسم الله – عز وجل – بحياة نبيه ﷺ فى موضع واحد ، وهو قوله تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) .

وفى هذا تكريم ما بعده تكريم لكى يعرف الناس مكانته العالية ومنزلته السامية عند رب البرية .

وهذا القسم يدل دلالة قاطعة على أن النبى ﷺ هو أفضل وأشرف الخلق على الإطلاق .

---

(٦١) انظر تفسير ابن كثير ٢٢/١ .

يقول ابن عباس – رضى الله عنهما – (ما خلق الله وما ذرا وما برا نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره) (٦٢) .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القسم بالرسول ﷺ ورد فى موضعين آخرين : فى أول سورة طه ، وأول سورة يس إلا أننى أرجح ما رجحه أكثر المفسرين على أن طه ويس من الحروف المقطعة التى تدل على التنبيه والإعجاز ، وليست من أسماء النبى ﷺ .

وفى القسم بحياة النبى ﷺ يقول د / فؤاد على رضا : وهذا القسم ليس بمستغرب بل الغريب أن لا يكون مثل هذا القسم فى القرآن ، فالله العادل الذى يحكم بالقسط ويوفى كل نفس أجرها ويزيد عليها ، وقد أرسل النبى الأمى إلى قومه وإلى الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأنزل عليه القرآن وألزمه المنهج وألزم الناس باتباعه لجدير به أن يزكى هذا الرسول عند أتباعه والناس كافة لكى يعرفوا قدره وقدر رسالته . وعظمة هذه المسيرة الإنسانية ومكانته عند الله تعالى . (٦٣)

رابعاً : القسم بالملائكة :-

أقسم الله – تعالى – بمخلوقاته الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته ، فأقسم – سبحانه – بالملائكة تشريفاً وتكريماً لهم ، وإظهاراً لفضلهم ، وتنويهاً بمكانتهم ، وتنبيهاً على جلالة قدرهم وكثرة عبادتهم ، فهم مع عظيم قدرهم ، وقوة خلقهم فى عبادة دائمة لربهم ومع ذلك يقولون : سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك .

ومن ثم فقد جاء القسم بهم فى أربعة مواضع هى :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا* فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا* فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا* إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾(الصافات: ١-٤)

---

(٦٢) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ١٩٢/٤ ط بيروت .

(٦٣) من علوم القرآن ١٦٨ بتصرف .

أقسم الله – تعالى – بطوائف الملائكة الصافين أنفسهم صفاً لعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره ، والذين يزجرون السحاب سوقاً إلى ما أراد الله ، والذين يتلون كلام الله تعالى من الكتب المنزلة وغيرها .

فهذه الصفات على القول الراجح من أقوال المفسرين (٦٤) للملائكة بدليل :-

أ – أنه قد جاء فى السورة نفسها وصفهم بأنهم صافون فى قوله تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ*وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾(الصافات:١٦٥-١٦٦) .

ب – ما رواه مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ " فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء) . (٦٥)

جـ – عطف الصفتين الثانية ، والثالثة بالفاء يدل على أنها جميعاً صفة لموصوف واحد هو الملائكة ، وجمعت جمع مؤنث سالم للدلالة على أنها جمع لطوائف من الملائكة . (٦٦)

٢– قوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً*فَالْحَامِلاتِ وِقْراً*فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً*فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾(الذاريات:١-٤) .

أقسم الله – تعالى – فى هذه السورة بعدة أشياء منها الملائكة فى قوله تعالى : (فالمقسمات أمراً) أى : الملائكة لأنهم يقسمون الأمور من الأمطار والأرزاق والشئون على حسب ما يكلفهم الله به فهى تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .

٣ – قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً*فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً*وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً*فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً*فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً*عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾(المرسلات:١-٦) .

---

(٦٤) لقد أختلف العلماء من المفسرين فى تعيين الموصوف بهذه الصفات فقيل : الملائكة ، وقيل : العلماء ، وقيل : المجاهدون ، وقيل : المصلون ، وقيل : الطير ، لقوله تعالى (والطير صافات) والقول الأول هو الأرجح .

(٦٥) صحيح مسلم – باب اتمام الصفوف فى الصلاة ٤:١٥٣ .

(٦٦) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣/٨٣ .

اختلف المفسرون في المراد بهذه الصفات فمنهم من قال : الملائكة ، ومنهم من قال : الرياح ، ومنهم من قال : أن بعضها للرياح وبعضها للملائكة وقد فصل القول في ذلك الإمام الجمل في حاشيته حيث قال : أقسم الله – تعالى – بصفات خمس موصوفها محذوف ، فجعلها بعضهم الرياح في الكل ، وجعلها بعضهم الملائكة في الكل ... وغاير بعضهم فجعل الصفات الثلاث الأول لموصوف واحد هو الرياح ، وجعل الرابعة لموصوف ثان ، وهو الآيات ، وجعل الخامسة لموصوف ثالث هو الملائكة . (٦٧)

وهذا الراى الأخير أقرب إلى القبول ، وهذا ما رجحه ابن كثير حيث قال : والأظهر أن المرسلات ، والعاصفات ، والناشرات ، المراد بها الرياح ، وقوله – سبحانه – (فالفارقات فرقاً) يصح أن يكون وصفاً للملائكة الذين ينزلون بالشرائع المفرقة بين الحق والباطل ، ويصح أن يكون وصفاً للآيات التي أنزلها الله للتمييز بين الخير والشر ، وقوله (فالملقيات ذكراً) هم الملائكة الذين يبلغون وحي الله إلى الرسل . (٦٨)

٤- قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً*وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً*وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً*فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً* فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾(النازعات:١-٥) .

اختلف المفسرون في الموصوف بهذه الصفات على أقوال كثيرة أشهرها وأرجحها : أنها أوصاف للملائكة الكرام ، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله ، وإسراعهم في تنفيذ ما كلفهم به – عز وجل – فهم ينزعون أرواح الكفار بشدة وعسر ، ويقبضون أرواح المؤمنين بسهولة ويسر ، ويسبحون في الكون ، ويسبقون في أداء ما وكل إليهم سبقاً عظيماً ، ويدبرون كثيراً من أمور العالم العلوى والسفلى كل ذلك بأذن الله وأمره . (٦٩)

---

(٦٧) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ٤/٤٦٣ ط دار البيان العربي .

(٦٨) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٥٩ ط. الأزهر .

(٦٩) التبيان في أقسام القرآن ص ٨٤ – ٨٥ بتصرف وتلخيص .

فسياق الآيات ينطبق على الملائكة وهذا هو الراجح أما ما قيل من أن المراد بذلك : النجوم ، وقيل : السفن ، وقيل : خيل الغزاة ، وقيل : رماة السهام فى الغزو ، والأول هو الأرجح والأظهر . والله أعلم .

خامساً : القسم بالقلم وما يسطر به :-

وقد ورد ذلك فى موضع واحد فى كتاب الله – تعالى – وهو قوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ*مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(القلم:٢) .

أقسم الله بالقلم وما يسطر به تشريفاً وتمجيداً لشأن الكتابة وما يترتب عليها من آثار عظيمة فى تحصيل المعارف والعلوم فى كل مجالات الحياة ليسعد بذلك العباد والبلاد ففى القلم البيان كما فى اللسان وهذه نعمة خص الله بها بنى الإنسان ليعبروا عما فى خلجات نفوسهم واجتهادات عقولهم ، ولذلك كان أول ما نزل به الوحى هو الإهتمام بشأن القراءة والكتابة قال تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ*خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ*اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥) .

وروى عن عبادة بن الصامت أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب ، قال : يا رب وما اكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة)(٧٠)

والتعريف فى " القلم " للجنس فهو واقع على كل قلم يكتب به فى الأرض والسماء ، وشامل لكل فنون الكتابة والطباعة المتنوعة والمتطورة تطوراً عظيماً وسريعاً ومدهشاً ، لما فيه من إتقان واحكام الصنع وروعة وجمال التنسيق ، يترتب على ذلك المساهمة الفعالة والثرية فى العملية التعليمية التى ينبنى عليها التقدم والحضارة ومصير الشعوب والأمم .

ومن فوائد هذا القسم أن هذا القرآن كتاب الإسلام ، وأنه سيكون مكتوباً ومقروءاً بين المسلمين ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بكتابة ما يوحى به إليه ، وأوثر القسم بالقلم

---

(٧٠) سنن الترمذى – كتاب التفسير ٢١٢/٥ ط دار الفكر .

والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللامزين له بالجنون إنما هو ما أتاهم به من الكتاب . (٧١)

ويقول صاحب الظلال : " يقسم الله – سبحانه – بنون ، وبالقلم وبالكتابة ، والعلاقة واضحة بين الحرف (نون) بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .. فأما القسم بهذا فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحى بقوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ...) ... وأن يكون هذا الخطاب موجها للنبى ﷺ الأمى – الذى قدر الله أن يكون أمياً لحكمة معينة – ولكنه بدأ الوحى إليه منوها بالقراءة والتعليم بالقلم ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ، والقلم وما يسطرون ، وكان هذا حلقه من المنهج الإلهى لتربية هذه الأمة وإعدادها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة ونشرها فى أرجاء الأرض ، ثم تنهض لتقود البشرية قيادة رشيدة ، وما من شك أن الكتابة عنصر أساسى فى النهوض بهذه المهمة الكبرى . (٧٢)

ويقول د / عبد الكريم الخطيب : " وفى القسم بما يسطر الكاتبون بالقلم . إشارة إلى أن هذه الأداة المكرمة ينبغى ألا يكتب بها إلا ما كان من الحق والخير ، وإلا ما كان دعوة إلى هدى وتوجيها إلى خير ... إنه أداة تسجيل المعارف والعلوم وحفظها ، وهو ينقل عن الإنسان نتاج تفكيره ، وثمرات عقله ، ويقيم له بهذا ذكراً خالداً فى الحياة بقدر ما يحمل القلم عنه من خير ، وما ينشر من نفع ، فكان لهذا جديراً بأن يصان من أن يُخط باطلا ، أو يسجل لغواً . (٧٣)

وليس المراد من القلم فى الآية : الأداة المعروفة من حيث ذاتها بل من حيث عملها والأثر الذى ينشأ عنها ، لذلك يجب على أصحاب الأقلام أن يقدروا النعمة التى منّ الله بها عليهم ويستخدموها فيما يرضى الله ويعود بالخير والنفع على البشرية جمعاء .

***

(٧١) انظر التحرير والتنوير ٢٩/٦٠ ، ٦١ .

(٧٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٦٥٤ ، ٣٦٥٥ بتصرف .

(٧٣) التفسير القرآنى للقرآن ١٣/١٠٧٨ .

المبحث الثاني

القسم بعالم الإنسان والحيوان والنبات

أولاً : القسم بالنفس الإنسانية :-

وقد ورد ذلك في موضعين :-

١- قوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ*وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة: ١-٢) .

أقسم الله – تبارك وتعالى – بالنفس لعظم مكانتها وشرف موقعها من الإنسان والمراد بها نفوس المؤمنين ، ووصفها بـ (اللوامة) مبالغة لأنها تكثر من لوم صاحبها على التقصير في التقوى والطاعة ، وهذا اللوم هو المعبر عنه في الاصطلاح – بالمحاسبة – ، ولومها يكون بتفكيرها وحديثها النفسي ، قال الأمام الحسن البصري : " ما يرى المؤمن إلا يلوم نفسه على ما فات ويندم يلوم نفسه على الشر لما فعله ، وعلى الخير لم لا يستكثر منه " .

والمراد اللوامة في الدنيا لوماً تنشأ عنه التوبة والتقوى ، وليس المراد لوم الآخرة إذ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾(الفجر: ٢٤) فهذه نفوس خيره حقيقة أن تشرف بالقسم بها ، وما كان يوم القيامة إلا لكرامتها

ومناسبة القسم بها مع يوم القيامة : أنها النفوس ذات الفوز في ذلك [٧٤] اليوم ، لأن ثمرة هذا اللوم ، إنما تظهر آثارة في ذلك اليوم ، ولولا الإيمان بيوم القيامة لما حاسب الإنسان نفسه على ما فعل ، وما تحركت في كيانة تلك النفس اللوامة .

٢- قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس: ٧ – ٨) .

أقسم سبحانه بالنفس البشرية ، وبالذي أنشاها وأبدعها وجعلها مستعدة لكمالاتها ، وذلك بتعديل أعضائها وقواها الظاهرة والباطنة ، ومن تمام تسويتها أن وهبها العقل الذي تميز به

---

(٧٤) التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٩ ، ٣٣٩ بتصرف .

بين الخير والشر والتقوى والفجور ، قال ابن عباس : بين لها الخير والشر ، والطاعة والمعصية ، وعرفها ما تأتى وما تتقى . (٧٥)

لذلك أقسم الله بالنفس لكرامتها وجاء القسم بها على سبيل الخصوص والعموم للاهتمام بشأنها وعظيم مكانتها ورفعة درجتها وسمو بناءها ، وأن الذى بناها هذا البناء وأحكمها هذا الإحكام إله قادر لا تغيب عنه شاردة ولا واردة ، فهو – سبحانه – يعلم دبيب النملة فى جوف الصخرة الصماء ، ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤) .

ثانياً : القسم بآدم وذريته :-

وقد ورد ذلك فى موضعين :-

١- قوله تعالى : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾(البلد:٣) .

٢- قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾(الليل:٣)

أقسم الله – سبحانه وتعالى – بوالد البشرية وهو آدم – عليه السلام – وما تناسل منه من ولد .

يقول ابن القيم : " والمقصود أنه سبحانه أقسم فى سورة البلد على حال الإنسان ، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو مكة أم القرى .ثم أقسم بالوالد وما ولد : وهو آدم وذريته فى قول جمهور المفسرين ، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان ، وأصل السكان ، فمرجع البلاد إلى مكة ، ومرجع العباد إلى آدم (٧٦) .

وقال بعض المفسرين : إن العموم أولى فيشمل آدم وذريته وغيره من الكائنات .

ومما يؤيد العموم القسم الوارد فى قوله(وما خلق الذكر والأنثى)

---

(٧٥) صفوة التفاسير للشيخ الصابونى ٥٦٢/٣ .

(٧٦) التبيان فى أقسام القرآن ٢٥ .

يقول ابن القيم : أقسم بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الأقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ، ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار ، وكل ذلك من آيات ربوبيته(٧٧).

يقول الشيخ محمد عبده ما ملخصه : " أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود – وهو طور التوالد – وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له . (٧٨)

وفي القسم بخلق الذكر والأنثى فيه من الحكم ما فيه ، ومن أخص هذه الحكم أن أصل التذكير والتأنيث بأمر الله ، وخاضع لمشيئته سبحانه ، وفوق ادراك كل فكر بشرى وقوة بشرية .

ثالثاً : القسم بالخيل :-

وقد ورد ذلك في موضع واحد وهو : قوله تعالى : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً* فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً*فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً*فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً*فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً*إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ١-٦).

ففي هذه الآيات نرى – أقساماً ثلاثة على أمور ثلاثة تعظيماً للمقسم به وبيانا لقيمته وأهميته ، وهو الخيل المعدة للجهاد في سبيل الله ليعلى من شأنها في نفوس المؤمنين الذين لا يقبلون الذل ، ولا الخضوع لأحد .

قال صاحب الظلال : " يقسم الله – سبحانه – وتعالى بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها حتى تورى الشرر منها ، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار ،

---

(٧٧) نفس المرجع ٣٧ .

(٧٨) انظر تفسير جزء عم : ٣٥ .

غبار المعركة على غير انتظار ، وهى تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب "[٧٩]

ومناسبة القسم بهذه الموصوفات دون غيرها ، لأجل التهويل والترويع وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ، ولكل من يتعرض للمسلمين بسوء .

يقول د / عبد الكريم الخطيب : " كل هذا الذى يشير إليه القرآن الكريم ، هو تخطيط للحرب ، ولما ينبغى أن يكون من تدبير جيش المسلمين فى لقاء العدو ... فهو درس بليغ فى الحرب ، يأتى عرضاً ، فيكون أثره أبلغ وأوقع من الدرس المباشر ... فلقد جاء العرض للخيل ، وفرسانها ، وأفعالهم فى الحرب ، والمسلمون محاصرون فى مكة ، واقعون تحت قبضة المشركين ، لا يدور فى تفكيرهم أبداً أنهم سيكونون يوماً هم فرسان هذه الخيل ، وهم جنود الله ، تعدو بهم هذه العاديات إلى الجهاد فى سبيل الله فيمكن الله لدينه بهم فى الأرض ويقيم بهم دولة الإسلام ؟ .

هؤلاء هم فرسان الحرب فى الإسلام ، كانوا أئمة المسلمين والقمم العالية فيهم ، ولو أن صحابة رسول الله ﷺ شهدوا عصر الدبابات والطائرات . والصواريخ لكانوا أساتذة فى هذا الميدان ، إبداعاً واستعمالا ، ولكانت الأمم التى تملك الصواريخ اليوم أمما متخلفة بالنسبة إليهم ... ذلك أن نفوسهم أشرقت بنور الحق ، وقلوبهم امتلآت بقوة الإيمان وعزته ، فعظمت نفوسهم ، واتسعت آمالهم وأبت عليهم نفوسهم العالية وهمهم العظيمة أن يسبقها سابق فيما يكسب العزة والسيادة .

فإذا صغرت النفوس ، وضعفت الهمم ، رضيت بالدون ، واستغنت بالتافه الحقير من الأمور .

فليس بالمؤمن من صغرت نفسه ، وضؤل شخصه ، وأمسك من دنياه بقبض الريح منها ، والله تعالى يقول : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون: من الآية٨).

---

(٧٩) انظر فى ظلال القرآن ٦/٣٩٥٨ .

وإنه لا عزة مع الضعف ، ولا إيمان بغير القوة والعزة ... القوة فى المادة والروح جميعا . (٨٠)

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(لأنفال: من الآية ٦٠).

يقول الإمام أبو السعود : " وفى تخصيص خيل الغزاة بالإقسام بها من البراعة ما لا مزيد عليه ، كأنه قيل : وخيل الغزاة التى فعلت كيت وكيت . (٨١)

رابعاً : القسم بالتين والزيتون :-

أقسم الله – تعالى – بالتين والزيتون فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ﴾(التين: ١-٢) ، أقسم الله – سبحانه – بهاتين الثمرتين تكريماً وتشريفاً لما فيهما من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة ، وللفت الأنظار إلى قدرة الخالق القهار ، وما أودعه من أسرار فى عالم النبات والزروع والثمار ، وللتذكير بنعمه التى لا تُعد ولا تحصى .

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالتين والزيتون ، ويروون عن ابن عباس أنه قال فيهما : (هو تينكم الذى تأكلون ، وزيتونكم االذى تعصرون منه الزيت) قال تعالى : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾(المؤمنون: ٢٠) .

وقال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال الواردة فى ذلك ، والصواب من القول عندنا ، قول من قال : التين : هو التين الذى يؤكل ، والزيتون : هو الزيتون الذى يعصر منه الزيت ، لأن ذلك هو المعروف عند العرب . (٨٢)

ويرجح القرطبى أنهما التين والزيتون على الحقيقة ، وقال : " لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل " . (٨٣)

---

(٨٠) التفسير القرآنى للقرآن ١٣/١٦٥٧ ، ١٦٥٨ بتصرف .

(٨١) تفسير أبى السعود ٧/١٩١ .

(٨٢) انظر جامع البيان فى تأويل القرآن للطبرى ١٢/٦٣٣ ط بيروت .

ويقول ابن القيم : " أقسم سبحانه بهذين النوعين من الثمار لمكان العبرة فيهما ، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين المعروفتين ومنبتهما " . (٨٤)

****

(٨٣) انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبى ١٢/٥٠ .

(٨٤) انظر التبيان فى أقسام القرآن : ٣٠ .

المبحث الثالث

القسم بالسماء وما فيها

أولاً : القسم بالسماء :-

وقد ورد ذلك فى ستة مواضع من كتاب الله وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾(الذاريات:٧) .

٢- قوله تعالى : ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾(الطور:٥)

٣- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾(البروج:١)

٤- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾(الطارق:١-٣)

٥- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾(الطارق:١١)

٦- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾(الشمس:٥)

أقسم الله – سبحانه – بالسماء لكونها مظهراً من مظاهر القدرة الإلهية ، يقول ابن القيم عن القسم بالسماء : " فإنها من أعظم آياته قدراً ، وارتفاعاً وسعة وسمكاً ولوناً وإشراقاً وهى محل ملائكته ، وهى سقف العالم وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف ، ومنها تنزل البركات ، وإليها تصعد الأرواح وأعمالها وكلماتها الطيبة . (٨٥)

ففى الآية الأولى أقسم الله بالسماء ووصفها بأنها ذات الحبك أى : ذات الحسن والبهاء ، وذات التناسق والإحكام ، وذات الطرائق المحسوسة التى هى سير النجوم والكواكب ، والمعقولة التى تسلكها الأنظار وتتوصل بها إلى المعارف . (٨٦)

---

(٨٥) انظر التبيان فى أقسام القرآن : ١٦٥ .

(٨٦) انظر الفتوحات الإلهية ٤/٢٠٢ .

وفى الآية الثانية : أقسم بالسماء ووصفها بالسقف المرفوع ، وسميت سقفاً لكونها بمثابة السقف للأرض .

وفى الآية الثالثة : أقسم بها ووصفها بأنها ذات البروج أى : ذات المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ومداراتها الفلكية الهائلة .

وفى الآية الرابعة : أقسم سبحانه بأعجب ما فيها وهو جنس النجوم ثم بأغربه وهو المعد للحراسة ، تنبيها على ما فى ذلك من غرائب القدرة .

وفى الآية الخامسة : أقسم بها ووصفها بأنها ذات الرجع : أى ذات المطر ، وسمى المطر رجعا لأنه يجئ ويرجع ويتكرر ، وهذا من إعجاز القرآن العظيم .

يقول د / زغلول النجار : أقسم ربنا – تبارك وتعالى – وهو الغنى عن القسم – بالسماء ذات الرجع ، ولم يقصر ذلك على المطر فقط ، لأن هناك فوائد ومنافع كثيرة غير المطر اكتشفها العلم الحديث فقد جعل الله – سبحانه – فى الغلاف الغازى المحيط بالأرض عدداً من نقط الحماية التى تُرُد إلى الأرض كل مفيد ، وتدفع عنها كل ضار ومُهلك من مختلف صور المادة والطاقة ، وهذه الآية فيها من المعانى والدلالات عشر صور ، خمس منها للرجع المفيد للأرض ، وخمس أخرى للرجع الضار لها (٨٧).

وفى الآية السادسة : أقسم بالسماء وبالقادر العظيم الذى بناها ، وأحكم بناءها بلا عمد ، فدل ذلك على قدرته وعظيم صنعته إذ أودع فيها قوى ممسكة بها ضابطه لوجودها حافظة لنظامها ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾(فاطر: من الآية ٤١) فالقسم هنا ، قسم بالشئ ، والصفة التى قام عليها ... وهذا يعنى مزيداً من التشريف والتكريم للشئ المقسم به ، إذ كان فى ذاته أهلاً للقسم ، ثم كانت صفاته أهلاً للقسم أيضا .

---

(٨٧) من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ١٤/٣ ، ١٥ بتصرف .

ثانياً : القسم بالشمس :-

أقسم الله – سبحانه – بالشمس في موضع واحد وهو قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾(الشمس: ١)

أقسم – سبحانه – بالشمس وضحاها ، لدلالتها على بديع صنع خالقها ولعظيم نفعها وجلالة قدرها

فالشمس وحدها آية دالة على قدرة خالقها ، لما فيها من طاقة حرارية في ذاتها تفوق كل تقدير ، وهي على مر الزمان بدون انتقاص فهي في ذاتها آية .

ثم جاء وصف أثرها وهو : ضحاها ، وهو انتشار ضوئها ضحوة حين ترتفع عن أفق مشرقها وتبسط ضوءها على وجه الأرض ، فتكون أكمل ما تكون ضياء وشعاعاً ، وهذا وحده آية ، لأنه نتيجة لحركتها ، وحركتها آية من آيات الله ، ففي هذا السير قدرة باهرة ودقة متناهية ، وضحاها : نتيجة لهذا السير[٨٨] ، وقد أقسم تعالى بالضحى وحده في قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(الضحى: ١-٢) .

وقد اثبت العلم الحديث : أن الشمس لو اقتربت درجة أو ارتفعت درجة عن سطح الأرض لما استطاع أحد أن ينتفع منها بشئ ، لأنها تحرق باقترابها ، ويتجمد العالم من بُعدها [٨٩] وذلك تقدير العزيز العليم ، فسبحان الله وتعالى الذى أبدع هذا النظام المحكم .

والشمس أروع آيات الخالق في السماء وأعظمها نفعاً لأهل الأرض ، فقد سخرها الله تعالى لتكون مصدر كثير من الطاقات على الأرض منذ القدم إلى يوم الدين ، فهي التي كونت

---

(٨٨) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٣٧/٩ ، ٢٣٨ بتصرف ط القاهرة .

(٨٩) من روائع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم د / عاطف قاسم المليجي ص ٨١ ، ٨٢ بتلخيص وتصرف ط النهار . .

الفحم الحجرى ، وإلى قدر كبير من الصحة هى التى رسبت البترول ، وحقيقة أمر الشمس أنها نجم متوسط القدر حجمها نحو مليون مرة قدر حجم الأرض . (٩٠)

ويقول الإمام الرازى : وأعلم أن الله – تعالى – إنما أقسم بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح ، فإن أهل العالم كانوا كالأموات فى الليل ، فلما ظهر أثر الصبح فى المشرق صار ذلك كالصور الذى ينفخ قوة الحياة ، فصارت الأموات أحياء ، ولا تزال تلك الحياة فى الازدياد والقوة والتكامل ، ويكون غاية كمالها وقت الضحوة ، فهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها .

ثالثاً : القسم بالقمر :-

ورد القسم بالقمر فى ثلاثة مواضع وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ*وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾(المدثر:٣٢-٣٣)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾(الانشقاق:١٨)

٣- قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾(الشمس:٢)

أقسم الله – عز وجل – بالقمر لأنه آية من آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه .

فأقسم فى الآية الأولى بالقمر مطلقاً ، دون ذكر حال من أحواله أو صفة من صفاته .. إنه القمر ، والقمر لا يسمى قمراً إلا مع تمامه وكماله .

وأقسم به فى الآية الثانية ووصفه بقوله (والقمر إذا اتسق) أى : اجتمع وتم نوره وصار بدراً ساطعاً ، وذلك فى الليالى البيض .

وأقسم به فى الآية الثالثة ووصفه بقوله (والقمر إذا تلاها) أى : تبع الشمس طالعاً بعد غروبها ، والقمر يتلو الشمس لأنه يستمد نوره منها .

---

(٩٠) مع القرآن فى الكون د / محمد جمال الدين الفندى ٨٤ : ٨٦ بتصرف .

يقول د / شوقي ضيف : أقسم بالقمر المسخر لإرادته وتدبيره في انتفاع الناس به ليلاً ، ومعروف أنه يبدو كهلا في أوائل الشهر ثم يظل يتزايد في كل ليلة ، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشر ، فيصير أضوأ ما يكون ، ويظل يتناقص بعدها حتى يعود إلى حاله الأولى(٩١)

ويقول د / محمد على حجازى : " اقسم بالقمر إذا تلاها في ارتباط مصالح العباد ، وتبين المواقيت وإضاءة الكون ، ومن هنا كان حساب السنين إما بالسنة الشمسية أو بالسنة القمرية . (٩٢)

وقد أثبت كل ذلك الإعجاز العلمي حيث بين أن القمر يعكس ضوء الشمس إلى الأرض لينيرها أثناء الليل ، وأن أوجه القمر تعين على حساب السنين والشهور والأيام ، وأنه ينظم حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس . (٩٣).. إلى غير ذلك من الأسرار العظيمة .

---

(٩١) القسم في القرآن الكريم للدكتور / شوقي ضيف ٢٧ ط دار المعارف .

(٩٢) التفسير الواضح للدكتور / محمد على حجازى ٣/٦٠٥ .

(٩٣) انظر مع القرآن في الكون د / محمد جمال الدين الفندى ٨٤ ط الهيئة المصرية .

رابعاً : القسم بالنجوم :-

أقسم الله – تعالى – بالنجوم وما يتعلق بها فى أربعة مواضع وهى:-

١- قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾(لنجم: ١)

٢- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾(الواقعة: ٧٥)

٣- قوله تعالى﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾(التكوير ١٥-١٦)

٤- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ*النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾(الطارق: ١-٣)

أقسم الله – سبحانه – بالنجوم وأوصافها ومواقعها لتنبيه العقول ولفت الأنظار إلى القدرة الخارقة المسخرة لهذا الكون بما فيه

ففى الآية الأولى : أقسم بالنجم إذا هوى أى : غاب وأختفى ، وتقييد القسم بالنجم بوقت غروبه بعد أن كان ساطعاً مرتفعاً فى الأفق لبيان أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ومن أعظم أحواله حال هويه

وفى الآية الثانية : أقسم بمواقع النجوم أى مساقطها التى تسقط فيها عند غروبها ، وتخصيصها بالقسم ، لما فى غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير [٩٤].

يقول د / زغلول النجار : " والقسم فى القرآن الكريم يأتى من قبيل التنبيه للمسلمين خاصة ، وللناس عامة إلى أهمية الأمر المقسم به ، ويعجب الإنسان من هذا القسم المغلظ بمواقع النجوم ، والنجوم من أعظم خلق الله فى الكون ، فالنجم عبارة عن كتلة من الغاز ملتهبة مشتعلة مضيئة بذاتها ، تظل شعلتها لملايين السنين دون أن تنطفئ .. وهنا نجد عمقاً فى هذا القسم لم يكن يدركه السابقون ، فلماذا أقسم ربنا – تبارك وتعالى – بمواقع النجوم ولم يقسم بالنجوم ذاتها على عظم شأنها ؟ .

---

(٩٤) تفسير أبى السعود ١٣٤/٥ .

الجواب الذى أدركه العلماء منذ سنوات قليلة للغاية ، أن الإنسان من فوق سطح هذه الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم على الإطلاق ، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ، ليس هذا فقط ، بل هناك نجوم ما زالت تتراءى لنا مواقعها ، وأثبت العلم أنها قد انفجرت منذ آلاف السنين ولا وجود لها الآن ، وهذا من رحمة الله بالإنسان لأنه لو نظر إلى النجم مباشرة لفقد بصره ، وهذه لمحة قرآنية مبهرة وآية من آيات الله سبحانه .

ليس هذا فقط ، فالموقع يشير إلى كل من المكان والزمان ، وهما سنة من سنن الله التى تمسك بأطراف هذا الكون بقوانين الجاذبية المنتشرة بين أجرام السماء ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾(فاطر: ٤١) .

وهذا القسم المبهر بمواقع النجوم كان من الأهمية بمكان ؛ لأن رصد مواقع النجوم كان منطلق معرفة الناس بكيفية خلق الله للكون ، وأن هذا الكون المحيط بنا كون دائم الاتساع . (٩٥)

وفى الآية الثالثة : أقسم الله – سبحانه – بالنجوم ووصفها بالخنس الجوار الكنس : أى : تخنس بالنهار وتظهر بالليل ، وتجرى وتسير سيراً حثيثاً ، وتكنس وقت غروبها أى تستتر ، ووصفت بذلك لأنها تكون فى النهار مختفية عن الأنظار فشبهت بالظبية الوحشية المختفية فى شجرة (٩٦)

يقول د / زغلول النجار : " ومعنى خنس فى اللغة أى : اختبأ واختفى ، وخنّس صيغة مبالغة يعنى أجرام مبالغ فى اختفائها ، إذ الخنس هى الثقوب السود ، وهى حالة من حالات النجوم المبهرة تتكدس فيها المادة تكدساً شديداً فلا يستطيع الضوء أن ينفلت من عقالها وهى مضيئة ، وإذا سقط عليها الضوء تبتلعه ولا ينعكس من سطحها فلا ترى .

وقوله " الجوار الكنس " : قالوا كنس فى اللغة مثل خنس ، بمعنى اختبأ واختفى أيضا، ولكن التكرار هنا ما معناه إذ إنه ليس للتأكيد ؟ والتكرار فى القرآن يأتى عادة لتأكيد حقيقة ،

---

(٩٥) من آيات الإعجاز العلمى ١/٣٩ ، ٤٠ .

(٩٦) انظر : تفسير القرطبى ١٩/٢٣٥ ، والتحرير والتنوير ٣٠/١٥٢ ..

ولكن لا يوجد هنا ما يحتاج إلى توكيد ولذلك خلصت إلى أن الكنس هنا الكنس بمعنى مسح صفحة السماء ، وليست من الاختفاء ، وثبت علمياً أن هذه النجوم الكثيفة للغاية والتى لا ترى تبتلع وهى تدور فى مدارها كل ما تمر به من صور المادة والطاقة وقد وصف العالم الأمريكى هذه الحالة بقوله : " هذه مكانس السماء الشافطة العملاقة " وتعبير القرآن لهذه الحالة من حالات النجوم بوصف " نجم خانس كانس " أبلغ ألف مرة من تعبير " الثقب الأسود " لأن الثقب يوحى بالفراغ على عكس الواقع . (٩٧)

ويقول ابن القيم : " أقسم سبحانه بالنجوم فى أحوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها وذلك من آياته ودلائل ربوبيته ." (٩٨)

وأقسم فى الآية الرابعة : بالسماء والطارق أى النجم وسماه طارقاً لأنه لا يظهر إلا ليلاً فهو يطرق ، وأصل الطرق : الدق ، والعرب تسمى كل قاصد فى الليل طارقاً .

والاستفهام فى قوله (وما أدراك ما الطارق) للتفخيم والتعظيم ، وقوله (النجم الثاقب) بيان ونفسير للطارق ، والثاقب أى : المضئ الذى يثقب الظلام ويخرقه بنوره فينفذ فيه ويبدده . (٩٩)

يقول د / زغلول النجار : " هذه الآيات الثلاث تؤكد على أن " الطارق " هو نجم خاص بعينه ، ومنذ سنوات قليلة اكتشف العلماء أن النجوم تقوم بدورة حياة تبدأ من الدخان فيتكثف على ذاته ويتم الاندماج النووى ... فالنجم هو حالة غازية ، يتحول إلى مادة صلبه بالتدرج فيصل إلى الحالة النيترونية ، ويتم هذا إذا تحول لبه إلى حديد فينفجر إذا كبر حجمه ،هذا النجم النيترونى يطلق نبضات كنبضات القلب تشبه تماماً الطرق على الباب ولذلك سماه القرآن (بالطارق) وهذا أمر مبهر للغاية : (سماع أصوات النجم مسجلة على CD وهى وثيقة علمية معترف بها) (١٠٠)

---

(٩٧) من آيات الإعجاز العلمى ٦٣/١ ، ٦٤ بتصرف .

(٩٨) التبيان فى أقسام القرآن ٧٣ .

(٩٩) انظر تفسير المراغى : ١١٠/١٠ ط دار الفكر .

(١٠٠) من آيات الإعجاز القرآنى ٥٥/٢ ، ٥٧ .

المبحث الرابع

القسم بالأرض وما فيها

أولاً : القسم بالأرض :-

وقد ورد ذلك فى موضعين وهما :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾(الطارق:١٢)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(الشمس:٦)

أقسم الله – تبارك وتعالى – بالأرض ووصفها بأنها ذات الصدع أى : أنها تتصدع وتنشق عن النبات والشجر والثمار والأنهار والعيون ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً*فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً*وَعِنَباً وَقَضْباً*وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً*وَحَدَائِقَ غُلْباً*وَفَاكِهَةً وَأَبّاً*مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾(عبس:٢٦-٣٢)

يقول د / زغلول النجار : " من الآيات الوصفية المبهرة قول الحق تبارك وتعالى (والأرض ذات الصدع) فهذا قسم عظيم لحقيقة كونية مبهرة لم يدركها العلماء إلا فى النصف الأخير من القرن العشرين.

فالأرض التى نحيا عليها لها غلاف صخرى خارجى ، وهذا الغلاف ممزق بشبكة هائلة من الصدوع ، ومن الغريب أن هذه الصدوع مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا يجعلها كأنها صدع واحد ، وعلماء الأرض يقولون الآن : إن هذا الصدع المتصل ضرورة من ضرورات جعل الأرض صالحة للعمران ، لأن الأرض فيها كم من العناصر المشعة التى تتحلل تلقائيا بمعدلات ثابتة ، هذا التحلل يؤدى إلى إنتاج كميات هائلة من الحرارة ، ولو لم تجد هذه الحرارة متنفساً سهلا لها ، لفجرت الأرض كقنبلة نووية هائلة منذ اللحظة الأولى لتيبس قشرتها الخارجية ، وانطلاقاً من ذلك يقسم الله تعالى بهذه الحقيقة الكونية المبهرة .[١٠١]

---

(١٠١) من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ١/٧٧ بتصرف ط مكتبة الشروق الدولية

وفى الآية الثانية : أقسم بالأرض ، وبالقادر العظيم الذى بسطها من كل جانب ، وجعلها صالحة للاستقرار ، ومهاداً للإنسان وسائر الكائنات .

ثانياً : القسم بالبحار :-

أقسم الله – تبارك وتعالى – بالبحر فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾(الطور:٦) .

أقسم سبحانه بالبحر ووصفه بقوله (المسجور) أى : المملوء ماء قد سجره الله ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض لحكمة عظيمة ، وقيل المسجور : الموقد الذى يوقد ناراً يوم القيامة.

يقول د / زغلول النجار : " والمسجور فى اللغة : هو المتقد ناراً ، والماء والنار من الأضداد ، وقد دفع ذلك بعدد من المفسرين إلى اعتبار البحر المسجور من أمور الآخرة لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(التكوير:٦) .

وسياق القسم فى سورة التكوير كله ، يتعلق بأمور سوف تقع فى الآخرة ، أما سياق القسم فى مطلع سورة الطور ، فيتعلق كله بأمور واقعة فى حياتنا الدنيا .

وقد دفع ذلك بعدد من المفسرين إلى البحث عن معنى آخر للفظة (مسجور) غير المتقد ناراً ، فوجدوا أن من معانى (سجر) ملأ وكف فقالوا : البحر المسجور أى المملوء المكفوف عن اليابسة ، وهو صحيح ؛ وذلك لأن ٩٧,٥ % من الماء العذب على اليابسة محجوز على قطبى الأرض ، وفوق قمم جبالها على هيئة طبقات من الجليد ، لو انصهرت لأرتفع منسوب الماء فى البحار بأكثر من مائة متر وغمر اليابسة ، ولكن قدرة الخالق تتحكم فى ذلك ، وعلى ذلك فإن تفسير (البحر المسجور) بالبحر المملوء بالماء المكفوف عن اليابسة تفسير صحيح .

ولكن بعد غوص الإنسان فى أعماق البحار والمحيطات ، وجد أن كلا من محيطات الأرض وعدداً من بحارها يتسع قاعة ، بفعل التحرك بعيداً عن شبكة الصدوع الأرضية ، بفعل ما يندفع عبرها من ملايين الأطنان من حمم وطفوح بركانية فى درجات حرارة تتعدى الألف درجة منوية ، مما يجعل قيعانها مسجرة فعلاً بدرجات حرارة عالية .

وهي ظاهرة من أعظم الظواهر الأرضية وأشدها غرابة ، ولم تعرف تلك الظاهرة بأبعادها الدقيقة إلا في أواخر الستينات من القرن العشرين ، والمبهر العجيب في هذا القسم القرآني ، تلك الدقة العلمية واللغوية الفائقة في الصياغة القرآنية بلفظة (المسجور) حيث لا توجد كلمة يمكن أن تحل محلها ، أو أن تغني عنها ، كما يعجب الإنسان لهذا النبي الأمي ﷺ من أين له هذه الدقة اللغوية والعلمية إن لم يكن موصولاً بالوحي ، ومعلما من قبل خالق السموات والأرض . (١٠٢)

ثالثاً : القسم بالرياح :-

ورد القسم بالرياح في موضعين من كتاب الله وهما :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً*فَالْحَامِلاتِ وِقْراً*فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً*فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾(الذريات: ١-٤)

٢- قوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً*فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً*وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً*فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً*فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً*عُذْراً أَوْ نُذْراً﴾(المرسلات ١-٦)

أقسم الله – سبحانه – بالرياح لشرفها ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه وقدرته ، فقال : (والذاريات ذروا) أي : الرياح التي تذروا التراب ، وتذروا الأمطار صعوداً وهبوطاً وتبعثرها هنا وهناك وفق ما تقتضيه حكمة الحكيم العليم ، (فالحاملات وقرا) أي : السحب تحمل الماء بواسطة الرياح فهي متصلة بها اتصال السبب بالمسبب ، (فالجاريات يسرا) أي : السفن تجري في البحر بأمر الله في يسر بتأثير الرياح ، (فالمقسمات أمرا) قيل هي : الرياح ، والأصح أنها الملائكة . (١٠٣)

وفي الآية الثانية : المراد بالمرسلات والعاصفات هي الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة .

---

(١٠٢) من آيات الإعجاز العلمي ١/٨٣ ، ٢/٢٦ ، ٣/١٧ ، ١٨ بتصرف واختصار .

(١٠٣) تأملات في سورة الذاريات د / محمد بكر اسماعيل : ١٥ .

يقول ابن القيم : أقسم الله بهذه الأشياء لمكان العبرة والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته ، وعظيم قدرته ، ففى الرياح من العبر ، هبوبها ، وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طابعها وصفاتها ومهابها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها ، فللمطر خمسة ريـاح ، وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، إلى غير ذلك من أنواع الريـاح ، وذلك يقتضى وجود خالق مصرف ومدبر لها يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها تارة رخاء ، وعاصفة تارة ، وتارة للرحمة ، وتارة للعذاب ... وهكذا . (١٠٤)

(١٠٤) التبيان فى أقسام القرآن ١٧٣ .

المبحث الخامس

القسم بالزمان وما يتعلق به

أولاً: القسم بالزمان :-

أقسم الله – عز وجل – بالعصر فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(العصر:٣)

اختلف العلماء فى المراد بالعصر إلى عدة آراء منها :-

١- أن المراد به الدهر كله ، وهذا الرأى هو الراجح .

يقول ابن قيم : وأكثر المفسرين على أنه الدهر ، وأقسم به لمكان العبرة والآية فيه ، فإن مرور الليل والنهار ، وتعاقبهما ، واعتدالهما تارة ، وآخذ أحدهما من صاحبة تارة ، واختلافهما فى الضوء والظلام ، والحر والبرد ، وما يحدث فيه من السراء والضراء ، والسعادة والشقاء والصحة والمرض ، والخوف والأمن ن والحياة والموت ، وتنوع إلى قرون ، وسنين ، وأشهر ، وأيام ، وساعات ، وما دونها ، كل ذلك وغيره آية من آيات الله وبرهان من براهين قدرته وحكمته . (١٠٥)

ويقول القرطبى : أقسم بالعصر وهو الدهر لما فيه من التنبيه بتصريف الأحوال وتبدلها وما فيها من الدلائل على الصانع . (١٠٦)

٢- إن المراد به : صلاة العصر ، وأقسم بها لشرفها وفضلها ، بدليل قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾(البقرة: من الآية٢٣٨) .

---

(١٠٥) التبيان فى أقسام القرآن ٥٤ بتصرف وتلخيص .

(١٠٦) الجامع لأحكام القرآن ١٧٩/٢٠ ط بيروت .

٣- أن المراد به : آخر النهار أقسم الله به كما أقسم بالفجر والضحى لأن آخر النهار يشبه تخريب العالم وإماته الأحياء ، كما أن أول النهار يشبه بعث الأموات . (١٠٧)

٤- أن المراد به : عصر النبي ﷺ أقسم به لأفضليته لما سبقه من العصور .

والرأى الأول هو الراجح لأنه يشمل كل هذه الآراء لأنها من أفراده وداخله في عمومه .

ورجح ذلك ابن جرير قائلاً : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر وهو اسم للدهر وهو العشى والليل والنهار . (١٠٨)

ثانياً : القسم بالليل :-

ورد القسم بذلك في ثمانية مواضع من القرآن هي :-

١- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾(المدثر:٣٣)

٢- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾(التكوير:١٧)

٣- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾(الانشقاق:١٧)

٤- قوله تعالى : ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾(الفجر:٢-٣)

٥- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(الفجر:٤)

٦- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(الشمس:٤)

٧- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾(الليل:١)

٨- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(الضحى:٢)

أقسم الله - سبحانه - بالليل في جميع أحواله لأنه من آياته العجيبة البديعة الدالة دلالة واضحة على وحدانيته وكمال ربوبيته ، وعظيم قدرته وحكمته ، فتبارك الذى جعل الليل لباساً والنهار معاشاً .

---

(١٠٧) التفسير الكبير ٣١/٨٥ .

(١٠٨) انظر تفسير الطبرى ١٢/٦٨٤ .

فأقسم سبحانه بالليل وقت إدباره أى وقت توليه ومضيه ، وأقسم به إذا عسعس أى إذا أدبر ظلامه أو أقبل فهو يحتمل الأمرين وأقسم بالليل وما وسق أى وما جمع وضم إليه من الأشياء التى كانت تشاهد نهاراً ، وأقسم بليالى مخصوصة لمزيد فضلها وشرفها فقال (وليال عشر) ، وأقسم بالليل وقت سريانه وإرخاء ظلامه على العباد فيسكنون وينامون ، وأقسم بالليل حين يغشى الشمس فيحجب ضوءها ، وأقسم بالليل إذ يغشى الكون كله ، والذى يتأمل تتابع الليل والنهار ، وتعاقبهما يرى قدرة الله واضحة جلية فى تسخيره لهذا الكون فسبحان القادر المدبر لكل ذلك ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ*قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾(القصص:٧١-٧٢)

فالليل والنهار آيتان من آيات الله الكونية البليغة ، ولا يقدر على الإتيان بهما إلا الله – جل فى علاه

ثالثاً : القسم بالنهار :-

وقد ورد ذلك فى موضعين هما :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾(الشمس:٣)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾(الليل:٢)

أقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون ، على أنهما آيتان عظيمتان فقال تعالى : (والنهار إذا جلاها) أى : والنهار إذا جلى الشمس وأظهرها وأتم وضوحها ، أى كلما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أكمل وضوحاً ، وفى ذلك إشارة إلى تعظيم الله أمر الضوء وأنه نعمة كبرى ، وقد أقسم سبحانه بالنهار إذا تجلى : أى ظهر ووضح بعد زوال ظلمة الليل ، فيتحرك الإنسان والحيوان والطير طلبا لمعاشهم ، وبهذا يظهر وجه المصلحة فى اختلافهما ، إذ لو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش على الناس ، ولو كان كله نهاراً لبطلت المصلحة ، فكان فى

تعاقبهما آية بالغة يستدل بها على علم الصانع وحكمته [١٠٩] قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾(الفرقان:٦٢) .

يقول د / زغلول النجار : " فخلق الليل والنهار من بدائع صنع الله ، فلولا تبادل الليل والنهار ما عرفنا سريان الزمن ومعرفة السنين والتاريخ والأيام ، وما استطعنا العمل بالنهار والراحة والسكون في الليل . [١١٠]

قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(الاسراء:١٢).

المحو هنا بمعنى طمس النور ، حتى يكون الليل فترة راحة ، ويكون النهار فترة عمل ونشاط .

رابعاً : القسم بالفجر :-

أقسم الله – تبارك وتعالى – بالفجر في موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾(الفجر:٢) .

يقول الإمام الرازي عند تفسيره لسورة الفجر ما ملخصه : " اعلم أن هذه الأشياء التي أقسم الله تعالى بها لابد وأن يكون فيها إما فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد ، أو فائدة دنيوية توجب بعثا على الشكر ، أو مجموعهما ، لأجل ذلك اختلف العلماء في تفسير معنى الفجر على وجوه الأول – ما روى عن ابن عباس : أن الفجر هو الصبح المعروف ، وأقسم الله به لما يترتب عليه من انقضاء ظلمة الليل ، وظهور ضوء النهار ، وانتشار الناس في طلب الأرزاق ، وهذا يشبه نشور الموتى من قبورهم وفيه عبرة لمن تأمل .

---

(١٠٩) انظر تفسير المراغي ١٠/١٦٦ ، ١٧٤ .

(١١٠) من آيات الإعجاز العلمي ٢/٦٣ ، ٦٤ .

الثانى : أن المراد به نفس صلاة الفجر ، وأقسم بها ، لأنها صلاة فى مفتتح النهار ، وتجتمع لها ملائكة النهار ، وملائكة الليل ، قال تعالى : ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾(الاسراء: من الآية٧٨).

الثالث : أنه فجر يوم معين ، واختلفوا فى تحديد هذا اليوم ، فقيل : أنه فجر يوم النحر ، وقيل : فجر ذى الحجة ، وقيل : فجر المحرم[١١١] والذى أميل إليه وأرجحه : أن المراد بالفجر هى صلاة الفجر ، أقسم الله بهذا الوقت لمزيد فضله وشرفه ، ولحضور القلب وصفاء النفس فى ذلك الوقت ، وظاهر القرآن يؤيده وكذلك صريح السنة.

والحكمة فى القسم بالفجر يبينها د / عبد الكريم الخطيب حيث يقول : " أن القسم بالفجر إشارة إلى تفجر النور من أحشاء هذا الظلام الموحش ، الذى يطبق على الوجود ويلفه فى رداء ثقيل ، أشبه بالأكفان التى يلف فيها الموتى .. إنه إشارة إلى بعث جديد للحياة ، ودعوة مجددة للأحياء أن يكتحلوا بهذا النور ، وأن يأخذوا مواقفهم فيه على طريق العمل .

فالأقسام الواردة فى بداية هذه السورة هى أقسام بوحدات من الزمن ، وفى هذه الوحدات يبدو الزمن كائنا حيا يعايش الناس ، ويشاركهم تقلبهم فى الحياة ، وفى هذا ما يبعث على النظر والتدبر والتفكر ، مما يكشف عن قدرة الخالق وعظمته وحكمته. [١١٢]

خامساً : القسم بالصبح :-

ورد القسم بالصبح فى موضعين :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾(المدثر:٣٤)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(التكوير:١٨)

أقسم الله – سبحانه – بالصبح فى بداية ظهوره وانشقاق نوره وفى حالة انتشاره ونشر

---

(١١١) التفسير الكبير ١٦٢/٣٠ ، ١٦٣ بتصرف.

(١١٢) التفسير القرآنى للقرآن ١٥٤٨/١٣ ، ١٥٤٩.

ضياءه على الكون ، وهذا من مظاهر القدرة العجيبة الدالة على النظام المحكم البديع الذى جعله الله فى هذا الكون .

يقول د / عبد الكريم الخطيب ما خلاصته : " وقد فرق النظم القرآنى المعجز بين الحالين فى قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ*وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾(المدثر:٣٣-٣٤) إنها لحظة واحدة يلتقى عندها إدبار الليل ، وإسفار الصبح ، وقد وزع النظم القرآنى هذه اللحظة ، فجعل بعضاً منها يذهب مع الليل ، وبعضا منها يتراءى خلف الصبح المقبل ... ولهذا جاء لفظ (إذ) مع إدبار الليل ، ... وهذا يعنى الزمن الماضى من تلك اللحظة فلقد أدبر الليل ومضى .

أما الصبح فهو ، وليد جديد ، يخطو خطواته نحو المستقبل ، فهو زمن ممتد ، ولهذا جاء الظرف المتلبس به بلقط (إذا) التى تدل على الزمن المستقبل .

وفى التعبير عن ظهور الصبح بالتنفس ، إشارة إلى أنه مولد حياة للأحياء جميعها حيث تبعث الحياة من جديد فى الأحياء مع الصباح بعد أن غشيها النوم وحبسها عن الحركة فبدت وكأنها فى عالم الموتى[١١٣] وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾(الأنعام: من الآية ٦٠) .

سادساً : القسم بالضحى :-

أقسم الله بالضحى فى موضعين هما :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾(الشمس:١)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(الضحى:٢)

والضحى هو : الوقت الذى ترتفع فيه الشمس بعد إشراقها فتكون أكمل ما تكون ضياءً وشعاعاً ، فالمراد بضحاها : ضؤوها .

---

(١١٣) التفسير القرآنى للقرآن ١٣/١٣٠٠ ، ١٤٧٣.

يقول ابن الجوزى : " وفى المراد " بالضحى " أربعة أقوال : أحدها : ضوء النهار ، والثانى : صدر النهار ، والثالث : أول ساعة من النهار إذا ترحلت الشمس ، والرابع : النهار كله[١١٤] .

يقول الإمام الرازى : ما الحكمة هنا فى الحلف بالضحى والليل فقط ؟ . والجواب لوجوه:-

أحدها : كأنه تعالى يقول : الزمان ساعة ، فساعة ليل ، وساعة نهار ، ثم يزداد فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ، ولا النقصان لقلى بل للحكمة ، كذا الرسالة وإنزال الوحى بحسب المصالح فمرة إنزال ، ومرة حبس ، فلا كان الإنزال عن هوى ، ولا كان الحبس عن قلى .

وثانيها : كأنه تعالى يقول : انظر إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارة يغلب ، وتارة يغلب فكيف تطمع أن تسلم على الخلق .

ثم يطرح الإمام الرازى سؤالاً آخر يقول : لم خص وقت الضحى بالذكر ؟ ، والجواب فيه وجوه :-

أحدها : أنه وقت اجتماع الناس وكمال الأنس بعد الاستيحاش فى زمان الليل ، فبشره أنه بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحى يظهر ضحى نزول الوحى .

وثانيها : أنها الساعة التى كلم فيها موسى ربه ، وألقى فيها السحرة سجداً . فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفاً ، وأفاد أيضا أن الذى أكرم موسى لا يدع إكرامك . والذى قلب قلوب السحرة حتى سجدوا قادر أن يقلب قلوب أعدائك [١١٥].

---

(١١٤) انظر : زاد المسير فى علم التفسير ١٥٦/٩ ط المكتب الإسلامى.

(١١٥) التفسير الكبير : ٢٠٩/٣١ .

سابعاً : القسم بالشفق :-

وقد ورد ذلك في موضع واحد وهو : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾(الانشقاق:١٦-١٨)

أقسم الله – سبحانه وتعالى – بالشفق وهو : اسم للحمرة التي تشاهد في أفق المغرب بعد الغروب ، وأصله من وجه الشئ يقال : شئ شفق أي لا يتماسك لرقته ، ومنه أشفق عليه رق قلبه ، والشفقة من الإشفاق ، وكذلك الشفق .(١١٦)

يقول ابن عاشور : " ولعل ذكر الشفق إيماء إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأن غـروب الشمس مثل حالة الموت ، وأن ذكر الليل إيماء إلى شدة الهول يوم الحساب ، وذكر القمر إيماء إلى حصول الرحمة للمؤمنين(١١٧).

ويقول صاحب الظلال : " وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها ، لتوجيه القلب البشرى إليها ، فهي لمحات ذات طابع خاص ، طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب ، فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب .(١١٨)

فالشفق آية كونية عجيبة تبرهن على إبداع الخالق في كونه .

ثامناً : القسم بيوم القيامة :-

ورد القسم بيوم القيامة في موضعين هما :-

١- قوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(القيامة:١)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾(البروج:٢)

أقسم الله – تبارك وتعالى – بيوم القيامة لتضخيمه وتعظيمه ولشدته وهوله ، والقسم به تقرير له وتحقيق لأمر وقوعه .

---

(١١٦) انظر : روح المعاني للآلوسي ١٤٥/١٦ ط دار الفكر .

(١١٧) التحرير والتنوير ٢٢٦/٣٠ .

(١١٨) في ظلال القرآن ٣٨٦٨/٦ .

يقول ابن عاشور : " افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف له نفس السامع ، وكون القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأن غرض السورة وصف يوم القيامة ، وفيه أيضا كون المقسم به هو المقسم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسم . والقسم " بيوم القيامة " باعتباره ظرفاً لما يجرى فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة[١١٩]

*****

(١١٩) انظر التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٩ ، ٣٣٨ .

المبحث السادس

القسم بالأماكن المقدسة

أقسم الله – تبارك وتعالى – ببعض الأماكن المقدسة لفضلها وشرفها وأهميتها ، فأقسم بالبيت المعمور ، والبيت الحرام ، وبجبل الطور .

أولاً : القسم بالبيت المعمور :-

ورد القسم بالبيت المعمور فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾(الطور:٤) .

أقسم سبحانه بالبيت المعمور الذى تطوف به الملائكة الكرام وهو لأهل السماء كالكعبة المشرفة لأهل الأرض ، فهو بيت عبادة الملائكة فى السماء لما ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء : (ثم رفع إلى البيت المعمور ، فقلت يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، وإذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم) (١٢٠) .

وقال ابن عباس : هو بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة تعمره الملائكة ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه (١٢١) .

وقيل أن البيت المعمور هو كعبة أهل السماء ، وفى كل سماء بيت معمور يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه

وقيل : إن البيت المعمور : هو البيت الحرام المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين وبوفود الحجاج والمعتمرين .

---

(١٢٠) صحيح مسلم بشرح النووى – باب الاسراء برسول الله ﷺ ٢/٢٢٥ .

(١٢١) تفسير الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٦/١٤٤ .

يقول ابن القيم : " وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح[١٢٢] الذى فى السماء ، وهو بحيال البيت المعمور فى الأرض ، وقيل هو البيت الحرام ، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت . [١٢٣]

ثانياً : القسم بمكة المكرمة :-

ورد القسم بها فى موضعين :-

١- قوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:٢)

٢- قوله تعالى : ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾(التين:٣)

أقسم الله – جل فى علاه – بمكة المكرمة تشريفاً لها وتعظيماً لحرمتها فقد جعلها الله حرماً آمنا ، وبها البيت العتيق قبلة المسلمين فهى أم القرى ، وهى مهبط الوحى ونزول الرحمات ، وإليها تجبى ثمرات كل شئ ، وبحيالها البيت المعمور فى السماء ، والحج إليها كفارة للذنوب إلى غير ذلك من الفضائل والمزايا التى لا يعلم قدرها إلا الله – سبحانه – .

يقول البيضاوى : " أقسم بالبلد الحرام ، وقيده بحلوله عليه السلام فيه إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله [١٢٤] ، وفى هذا تكريم لرسوله ﷺ .

ويقول ابن عاشور : " والإشارة بـ (هذا) مع بيانه بالبلد ، إشارة إلى حاضر فى أذهان السامعين كأنهم يرونه لأن رؤيته متكررة لهم ، وفائدة الإتيان باسم الإشارة تمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به " . [١٢٥]

---

(١٢٢) الضراح : بالضم : بيت فى السماء مقابل الكعبة فى الأرض . انظر : لسان العرب ٢٥٧٢/٤ .

(١٢٣) انظر التبيان فى أقسام القرآن ١٦٥ .

(١٢٤) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٧٩٩ .

(١٢٥) انظر التحرير والتنوير ٣٤٦/٣٠ ، ٣٤٧ .

ثالثاً : القسم بالطور :

ورد القسم بالطور فى موضعين :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ*وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ*فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ (الطور: ١-٣)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ﴾(التين: ١-٢)

قال الإمام الآلوسى : الطور : اسم لكل جبل على ما قيل فى اللغة العربية عند الجمهور ، والمراد به هنا (طور سنين) الذى كلم الله -تعالى- موسى عنده ، وأقسم به لفضله على الجبال . (١٢٦)

وقال القرطبى : " الطور : اسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لما فيه من الآيات(١٢٧)

وجاء القسم هنا معرفاً باللام فقال (والطور) ، وجاء فى سورة التين معرفاً بالإضافة فقال (وطور سنين) ، وسر ذلك : تحديد المكان لئلا ينصرف الذهن إلى جبل آخر ، فهذا جبل معين ذو تاريخ خاص ، وله مكانة عظيمة ، وهو مظهر بركة الدنيا والآخرة ، لذلك اختاره الله لتكليم موسى عليه . (١٢٨)

---

(١٢٦) انظر روح المعانى ١٥/٤١ ، ٤٢ .

(١٢٧) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٧/٥٨ .

(١٢٨) انظر التبيان فى أقسام القرآن ١٦٤ بتصرف .

المبحث السابع

القسم بصيغة العموم

أولا : القسم بجميع الأشياء بالإجمال :-

وهذا القسم العام الشامل ورد فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لا تُبْصِرُونَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(الحاقة:٣٨-٤٠)

أقسم الله – سبحانه – بالأشياء جميعها سواء كانت مرئية ومشاهدة للإنسان أو غير مرئية ومشاهدة له ، للدلالة على سعة علمه وطلاقة قدرته ، وعظيم ملكه وسلطانه .

يقول الإمام الرازى ما ملخصه : " والآية تدل على العموم والشمول ، لأنها لا تخرج عن قسمين : مبصر وغير مبصر فشملت الخالق والخلق ، والدنيا والآخرة والأجسام والأرواح ، والأنس والجن ، والنعم الظاهرة والباطنة . (١٢٩)

ويقول الآلوسى : " اقسم الله بالمشاهدات والمغيبات ، وهذا عام فى جميع المخلوقات(١٣٠)

ويقول ابن عاشور : " جمع الله فى هذا القسم كل ما الشأن أن يقسم به من الأمور العظيمة من صفات الله – تعالى – ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصلتان (بما تبصرون وما لا تبصرون) فمما يبصرون : الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب ، وما لا يبصرون : الأرواح والملائكة وأمور الآخرة ". (١٣١)

ثانياً : القسم بالشاهد والمشهود :-

أقسم الله – عز وجل – بالشاهد والمشهود فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (البروج:٣)

---

(١٢٩) انظر التفسير الكبير ١١٦/٣٠ .

(١٣٠) تفسير روح المعانى : ٨٩/١٦ .

(١٣١) انظر : التحرير والتنوير ١٤١/٢٩ .

يقول الرازى عند تفسيره لهذه الآية : " وأما الشاهد والمشهود ، فقد اضطربت أقاويل المفسرين فيه ، والقفال أحسن الناس كلاماً فيه قال : إن الشاهد يقع على شيئين :

أحدهما : الشاهد الذى تثبت به الدعاوى والحقوق .

والثانى : الشاهد الذى هو بمعنى الحاضر كقوله (عالم الغيب والشهادة) ويقال فلان شاهد وفلان غائب وحمل الآية على هذا الاحتمال الثانى أولى . (١٣٢)

وقد ذكر المفسرون فى معنى هذين اللفظين ما يقرب من عشرين وجها .

يقول ابن جرير ما ملخصه : " الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود: يوم عرفة أو النحر ، وقيل : الشاهد محمد ﷺ والمشهود : يوم القيامة ، وقيل الشاهد : الإنسان والمشهود : يوم القيامة ، وقيل الشاهد : هو الله – عز وجل – والمشهود يوم القيامة ، وقيل : عيسى وأمته ، وقيل أمة محمد ﷺ وسائر الأمم ، وقيل يوم التروية ويوم عرفه ، وقيل : الحجر الأسود والحجيج ، وقيل الأيام والليالى ، وقيل : الحفظة وبنو آدم .

ثم يقول ابن جرير : والصواب عندى أنه صالح لكل ما يقال له شاهد ويقال له مشهود. (١٣٣)

ويقول ابن القيم : أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود : مطلقين غير معينين ، وأعم المعانى فيه أنه المدرك والمدرك ، والعالم والمعلوم ، والرائى والمرئى ، وهذا أليق المعانى به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل لا على وجه التخصيص . (١٣٤)

وذكر قوله (وشاهد ومشهود) بالتنكير : لتهويل أمرهما وتفخيم شأنهما .

والذى آراه أن الشمول أفضل والعموم أولى وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين .

---

(١٣٢) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ١١٤/٣١ .

(١٣٣) تفسير الطبرى ٥٢١/١٢ – ٥٢٣ .

(١٣٤) انظر : التبيان فى أقسام القرآن ٥٧ .

ثالثاً : القسم بالشفع والوتر :-

أقسم الله – عز وجل – بالشفع والوتر فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾(الفجر:٣)

أقسم الله – سبحانه – بالليالى جملة ، ثم أقسم بما حوته من زوج وفرد ، وقد اختلف العلماء فى المراد بالشفع والوتر فمنهم من قال : هو شفع كل الأشياء ووترها ، أو شفع هذه الليالى ووترها ، أو شفع الصلوات ووترها ، أو شفع الأعداد ووترها ، أو شفع جميع المخلوقات[١٣٥]

والوتر هو الخالق – سبحانه – وقد رجح بعض العلماء هذا القول ومنهم الشيخ عطية محمد سالم حيث قال ما ملخصه : " ذكر المفسرون أكثر من عشرين قولاً ومجموعها يشمل جميع المخلوقات جملة وتفصيلاً

أما جملة فقالوا : إنما الوتر هو الله لقول الرسول ﷺ : (إن الله وتر يحب الوتر) [١٣٦] وما سواه شفع لقوله تعالى : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾(الذاريات: من الآية٤٩).

فهذا شمل كل الوجود الخالق والمخلوق ، كما فى عموم قوله :﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لا تُبْصِرُونَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(الحاقة:٣٨-٤٠)

أما التفاصيل فقالوا : المخلوقات إما شفع كالحيوانات أزواجاً ، والسماء والأرض والجبل والبحر والنار والماء ... وهكذا ذكروا لكل شئ مقابلة ، ومن الأشياء الفرد كالهواء ، وكلها من باب الأمثلة.

والواقع أن أقرب الأقوال عندى ، والله أعلم : أنه هو الأول لأنه ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة ، فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره

---

(١٣٥) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل ٤١٩/٦ ط بيروت .

(١٣٦) صحيح البخارى – كتاب الدعوات – باب لله مائة اسم غير واحد ١١٥/٤ ط دار الحديث .

مكون من ذرات كالكهرباء مثلا فإنها من سالب وموجب ، والماء مكون من عنصرين أكسجين وهيدروجين ، والهواء مكون من غازات وتراكيب .

فلم يبق فى الكون شئ قط فرداً وتراً بذاته ، إلا ما نص عليه الحديث (إن الله وتر يحب الوتر) ومعنى الوتر : أنه سبحانه المستغنى بذاته عن غيره ، والواحد فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، فصفاته كلها وتر كالعلم بلا جهل ، والحياة بلا موت بخلاف المخلوق ، ولهذا كان القول القائل : أن الوتر هو الله والشفع : هو المخلوقات جميعها ، هو القول الراجح ، وهو الأعم فى المعنى.(١٣٧)

وهذا الرأى هو ما أميل إليه وأرجحه إذا كان فى حق الخالق – عز وجل – فهو الواحد الأحد الفرد الصمد – ولا ينكر ذلك أحد من المؤمنين .

أما بالنسبة للمخلوقين فلا مانع من أن تشمل الآية كل ما ذكره العلماء فى تفسيرها ، وخاصة الرأى القائل : أن المراد بهما شفع الصلوات ووترها لأن سياق الآيات والأدلة من السنة تؤيده لأن الرسول ﷺ واظب عليها وأمر المؤمنين بالمحافظة عليها ، لذلك أقسم الله بالفجر ، وهو لمن حافظ عليه خير دليل على إيمانه ، ثم اتبع ذلك القسم بالشفع والوتر ، ليؤكد أهمية هذه السنن ، والعلماء يقولون : إن الأشياء إذا كانت ظاهرة فلا تحتمل إلا وجهاً وحيداً والباقى زيادة توضيح .

(١٣٧) انظر : أضواء البيان ٩/٢١٠ ، ٢١١ .

المبحث الثامن

أقوال العلماء فى المقسم به المقترن "بلا" النافية

ورد المقسم به مسبوقاً بأداة النفى " لا " فى ثمانية مواضع وهى

١- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾(الواقعة:٧٥)

٢- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ (الحاقة ٣٨-٣٩)

٣- قوله تعالى :﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾(المعارج: من الآية٤٠)

٤- قوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(القيامة:١)

٥- قوله تعالى : ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾(القيامة:٢)

٦- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾(التكوير:١٥)

٧- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾(الانشقاق:١٦)

٨- قوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:١)

وفى آية مدنية واحدة وردت " لا " بغير فعل ، جرياً على أساليب العرب ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾(النساء: من الآية٦٥).

ويرى النحاة أن " لا " فى هذه الآية نافية لفعل محذوف يدل عليه الفعل المذكور ، تقديره (فلا يؤمنون وربك لا يؤمنون) فأخبر أولا ثم أكد بالقسم بعد ذلك ، فاستغنى بذكر الفعل بعد القسم عن ذكره قبله(١٣٨) .

وقد وقف العلماء أمام هذه الظاهرة القرآنية ، واختلفت آراؤهم فى تفسيرها إلى أربعة آراء وهى :-

---

(١٣٨) انظر :دراسات فى القرآن والحديث د / يوسف حليف : ١٠٩ .

الرأي الأول :-

أنها نافية ، ولكن ظاهر الكلام إثبات القسم لا نفيه ، وليس المقصود بها نفى الأقسام ، وإنما المقصود لازم ذلك النفى وهو تعظيم المقسم عليه أو المقسم به . (١٣٩)

يقول الإمام السمين الحلبى : أنها حرف نفى ، وأن المنفى بها محذوف ، وهو كلام الكافر والجاحد ، تقديره : فلا صحة لما يقول الكفار ، ثم ابتدأ قسما بما ذكر . (١٤٠)

وهذا الرأى ارتضاه الإمام الرازى وسماه بالمعقول فقال – بعد أن أجمل آراء العلماء وسماها بالمنقول – : وأما المعقول فهو أن كلمة " لا " هى نافية – على معناها – غير أن فى الكلام مجازاً تركيباً وتقديره أن تقول : " لا" – فى النفى هنا – كهى فى قول القائل : لا تسألنى عما جرى علىَّ يشير إلى أن ما جرى عليه أعظم من أن يشرح فلا ينبغى أن يسأله عنه ... ثم يقول : ومثل هذا موجود فى القسم من أحد وجهين : إما لكون الواقعة فى غاية الظهور ، فيقول : لا أقسم على هذا الأمر لأنه أظهر من أن يُشْهر ، وأكثر من أن يُنكر ، فيقول : لا أقسم ، ولا يريد به القسم ونفيه ، وإنما يريد الاعلام بأن الواقعة ظاهرة فلا حاجة إلى القسم ، وأما لكون المقسم به فوق ما يُقسم به . (١٤١)

فالغرض من ذلك عند الإمام الرازى هو تعظيم المقسم عليه أو المقسم به ، وهذا الرأى جميل لأنه لا يراد به نفى القسم حقيقة ، بل الإشارة إلى أنه لا يحتاج إلى قسم لظهوره ووضوحه .

يقول الشيخ السايس : ولعلك بعد كلام الفخر تكون قد فهمت أن نفى القسم استعمل فى القسم من طريق أوكد وأبلغ . (١٤٢)

---

(١٣٩) لا واستعمالاتها فى القرآن الكريم د / على أحمد طلب ٦٣١ : ٦٣٣ بتصرف .

(١٤٠) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى ٢٦٦/٦ .

(١٤١) التفسير الكبير للرازى ١٨٧/٢٩ بتصرف .

(١٤٢) انظر : تفسير آيات الأحكام ٤٨٥/٤ .

ورجح هذا الرأى الإمام الزمخشرى [١٤٣] والآلوسى [١٤٤] والشوكانى [١٤٥] والبقاعى [١٤٦] وغيرهم .

وقد ضعف بعض العلماء هذا الرأى كالإمام الحلبى حيث قال : وضُعف هذا لأنه فيه حذف اسم لا وخبرها ".

ويقول الإمام أبو السعود : وأما ما قيل من أن المعنى فلا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ، فيأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به [١٤٧]. فقد صرح بذكر القسم فى قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم) وبعدها (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) (الواقعة : ٧٦) وهذا يدل على إثبات القسم لا نفيه .

الرأى الثانى :-

أنها صلة [١٤٨]- أى زائدة زيدت - للتأكيد ، والمعنى فأقسم وهو رأى جمهور المفسرين والنحاة [١٤٩] .

وقد ضعف هذا الرأى ابن يعيش حيث يقول : " لا " ليست زائدة لتأكيد القسم ، لأن ما يراد توكيده ينبغى أن يكون متأخرا عما هو مؤكد له ، فليس من المقبول أن نجعل " لا " مزيدة لتأكيد معنى القسم الوارد بعدها ، وقد أنكر ذلك بعض أهل اللغة [١٥٠].

---

(١٤٣) انظر : تفسير الكشاف ٢٧٧/١ .

(١٤٤) انظر : روح المعانى ٢٣٣/١٥ .

(١٤٥) انظر : فتح القدير ٢٢٧/٥.

(١٤٦) انظر : نظم الدرر ٤٢٣/٧ .

(١٤٧) انظر : تفسير أبى السعود ١٩٩/٨ .

(١٤٨) المفسرون يقولون (صلة) بدل (زائدة) تأدباً مع القرآن ومعناهما واحد والمراد بالزيادة فى القرآن الزيادة فى الإعراب لا فى المعنى . انظر تفسير آيات الأحكام للصابونى ٥٠٣/٢

(١٤٩) لا واستعمالاتها فى القرآن ٦٣١ وتفسير فتح القدير ٢٢٧/٥ ، والكشاف ٢٧٧/١

(١٥٠) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ١٣٦/٨ .

ولأن زيادة الحرف يدل على إطراحه ، وكونه فى أول الكلام يدل على قوة العناية به ، لذا لا يجوز أن نجعل " لا " فى هذه الآيات زائدة (١٥١) .

الرأى الثالث :-

أنها لام الابتداء والأصل فلا أقسم فأشبهت الفتحة فتولد منها ألف ، كقول الشاعر : " أعوذ بالله من العقراب " وقد قرأ هكذا الحسن البصرى (فلا قسم) بدون ألف (١٥٢).

وهذا الرأى ضعيف ، وقد بين ذلك الزمخشرى حيث قال : " لا يصح أن تكون اللام " لام القسم " لأمرين :-

١- أن حقها أن تقرن بالنون المؤكدة والإخلال بها ضعيف قبيح .

٢- أن لأفعلن فى جواب القسم للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال (١٥٣).

ومن المعلوم أن قراءة الحسن البصرى شاذة لا يعتد بها .

الرأى الرابع : -

أنها منفصلة عن فعل القسم ، وقد وردت لنفى كلام المخاطبين والرد على معتقداتهم الباطلة ، ثم جاء فعل القسم وأداته ، كأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم ، أقسم بيوم القيامة ، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين ، كقول القائل : لا والله فـ " لا " رد لكلام قد تقدمها (١٥٤).

وقد ذهب إلى تأييد هذا الرأى : ابن عاشور ، وابن كثير ، والقرطبى وغيرهم .

قال ابن عاشور : وصيغة " لا أقسم " صيغة قسم ، أدخل حرف النفى على فعل " أقسم " لقصد المبالغة فى تحقيق حرمة المقسم به بحيث يُوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ثم يترك

---

(١٥١) الأمالى الشجرية : ٢١٩/٢ .

(١٥٢) انظر : الدر المصون ٢٦٦/٦ ، والبحر المحيط : ٢١٣/٨ .

(١٥٣) انظر : تفسير الكشاف ٦١/٤ .

(١٥٤) فتح البيان فى مقاصد القرآن ٤٣٣/١٤ .

القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول : لا أقسم به ، أى ولا أقسم بأعز منه عندى ، وذلك كناية عن تأكيد القسم . (١٥٥)

وقال ابن كثير عند تفسيره لقوله تعالى :(لا أقسم بيوم القيامة) " أن المقسم عليه إذا كان منفيا جاز الإتيان بـ " لا " قبل القسم لتأكيد النفى ، والمقسم عليه هنا : إثبات المعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد . (١٥٦)

وبعد عرض آراء العلماء فى ذلك تبين أن الرأى الأخير هو الراجح ، لأنه يتناسب مع غرض القرآن فى تأكيد الأمر عن طريق النفى ، وكان ذلك مألوفاً فى لغة العرب . فجاء أسلوب القرآن موافقاً لأساليبهم العربية . والله أعلم .

***

(١٥٥) انظر : التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٩ .

(١٥٦) انظر : تفسير ابن كثير ٤٤٧/٤ .

المبحث التاسع

وقفات حول المقسم به

المقسم به هو الأصل فى القسم ، ويلاحظ عليه أمور منها

١- الناظر بعين البصيرة فيما ورد من آيات القسم فى القرآن يجد أن معظمها ورد للاستدلال بها على أمور أساسية تتعلق بأصل الدين ليؤكد بها قدرة الخالق العظيم .

يقول العلماء ما ملخصه : إن هذه الأقسام الواردة من الرحمن – عز وجل – تحمل على الاستدلال ، لأن هذا هو الأفضل والأكمل ، واللائق بجلال الله وعظمته ، وليس من الصواب أن يفهم قسم صادر من الله – سبحانه – على أنه اضطرار ، ولا على أنه تقديس للمقسم به ، إلا فى حالة واحدة وهى القسم بذاته المقدسه – سبحانه وتعالى – أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته . (١٥٧)

٢- المتأمل فى القرآن الكريم يجد أن الأقسام الصريحة أكثرها وردا فى السور المكية وخاصة فى فواتح السور ، وأما السور المدنية فأكثر الأقسام الواردة فيها غير صريحة .

يقول د / يوسف خليف ما ملخصه : " ورد القسم الصريح فى إحدى وثمانين آية اكثرها مكى ، فمنها : ثلاث وستون آية مكية ، وثمانى عشرة آية مدنية ، ويرجع السبب فى انتشار القسم فى المرحلة المكية ، لأن هذه المرحلة هى التى شهدت حملات الرفض والإنكار لهذه الدعوة ، والتشكيك فيما جاء به الدين الجديد ، وأكثر الأقسام انتشاراً فى القرآن القسم بآياته ومخلوقاته ، وهى التى تميز أسلوب القسم فيه بهذا الطابع الفريد والظاهرة التى تلفت النظر أن هذا الأسلوب انفردت به الآيات المكية وحدها ، ولم يرد فى أى آية مدنية ، كما يلفت النظر أيضا أن كل هذه الأقسام ورد فى فواتح السور . (١٥٨)

---

(١٥٧) انظر : الإمعان فى أقسام القرآن ٢٧ ، ومع القرآن للدكتور الحوفى ١١٠ .

(١٥٨) انظر : دراسات فى القرآن والحديث ٩٥ ، ٩٩ .

٣- يقول الإمام ابن القيم ما ملخصه : إن الله – عز وجل – يقسم من كل جنس بأعلاه ، فعندما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها وهى النفس الإنسانية ، وعندما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله وهو القرآن ، وعندما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهى السماء وشمسها وقمرها ونجومها ، وعندما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه وهى الليالى العشر ، وعندما أقسم بالمكان أقسم بأفضله وهو مكة المكرمة وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه فى العموم [١٥٩] كقوله:﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لا تُبْصِرُونَ﴾ (الحاقة:٣٨-٣٩) وقوله : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾(الليل:٣).

٤- يقول الإمام محمد عبده : إنك إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أنكره بعض الناس ، أو احتقره لغفلته عن فائدته ، أو ذهل عن موضع العبرة فيه وعمى عن حكمة الله فى خلقه ، أو انعكس عليه الرأى فى أمره فاعتقد فيه غير الحق ، فيقسم الله به إما لتقرير وجوده فى عقل من ينكره ، أو تعظيم شأنه فى نفس من يحتقره ، أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا ينكره ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو فاته الفهم .

فمما أقسم الله به يوم القيامة أو القرآن مثلا ، ذلك لتقرير أن الأول واقع لا مفر منه ، وأن الثانى كلام الله الحق الذى لا ريب فيه ، ثم يكون فى ذلك تعظيم كليهما ، الأول لما يكون فيه من سعادة وشقاء ، والثانى لما فيه من الهداية والشفاء لما يعروا النفوس من الأدواء [١٦٠].

٥- تنبيه العقول ولفت الأنظار إلى ما فى المقسم به من آيات بينات ودلائل وضحات وخاصة القسم بالآيات الكونية والتى تدعو إلى التدبر والتأمل فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من منافع وخيرات للإنسان ، وما فيهما من دلائل على قدرة الخالق المبدع العظيم ، فقسم القرآن بهذه الظواهر والكائنات ، يدفع الناس إلى البحث والعلم والتنقيب ، وقد أثبت الواقع أنه كلما تعمق الباحثون فى دراسة هذه الظواهر الطبيعية التى أقسم الله بها وجدوا فيها

---

(١٥٩) انظر : التبيان فى أقسام القرآن : ٧٧ .

(١٦٠) انظر : تفسير جزء عم : ١٠ .

من العظمة والجلال والقدرة الإلهية ما تخر له النفوس ساجدة خاشعة قائلة : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران: من الآية١٩١).

٦- التنوع الفريد فى التعامل مع أسلوب القسم ، فتارة يقسم سبحانه بذاته ، وتارة بكتابه ، وتارة برسوله ﷺ وتارة بملائكته ، وتارة بالعالم العلوى وما فيه ، وتارة بالعالم السفلى وما فيه ، وتارة بالنفس الإنسانية ، وتارة بالأشياء الظاهرة الواضحة ، وتارة بالأشياء الغامضة الخفية ، وكل ذلك يفتح للباحثين والدارسين مجالات متعددة فى الجوانب العلمية ، والنفسية والاجتماعية وغيرها .

٧- غالباً يكون المقسم به أظهر وأوضح وأكد من المقسم عليه ؛ لأنه إنما جئ به لإظهار وإيضاح وتوكيدالمقسم عليه ، وهذا ظاهر واضح لمن تأمله فإذا وجدنا الشئ يقع تارة مقسما به ، وتارة أخرى مقسماً عليه ، أو وجدنا فى المقسم به خفاء أكثر مما فى المقسم عليه فأن الأمور البلاغية تدخلها الاعتبارات .[١٦١]

٨- يأتى المقسم به على صور[١٦٢] متعددة ، فتارة يتعدد المقسم به مع إنفراد المقسم عليه كما فى سورة الطور ، وتارة يتعدد المقسم به مع تعدد المقسم عليه ، كما فى سورة البلد ، وسورة الضحى ، وتارة ينفرد المقسم به مع تعدد المقسم عليه كما فى سورة النجم ، وتارة ينفرد المقسم به مع انفراد المقسم عليه كما فى سورة العصر ، وتارة يأتى مقسم به وجوابه ثم يتبعه مقسم به آخر وجوابه كما فى سورة الذاريات وسورة الطارق

وأحياناً يكون المقسم به واحداً كقوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾(العصر:١-٢) .

وأحيانا يكون اثنين كقوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(الضحى:١-٢)

---

(١٦١) انظر : المنهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم د / الراجحى : ٩٢ .

(١٦٢) سبق بيان ذلك فى الفصل الأول ص٢٢ ،٢٣.

وأحياناً يكون ثلاثة كقوله تعالى : ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ*وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ*وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (المدثر: ٣٢-٣٤).

وأحيانا يكون أربعة كقوله تعالى : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾(التين: ١٠٣)

وأحياناً يكون خمسة كقوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: ١-٤)

وأحيانا يكون سبعة كقوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا* وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾(الشمس: ١-٧)

يقول ابن القيم : قد يكون المقسم به واحداً ، وقد يكون متعدداً كما فى الجواب قد يكون واحداً وقد يكون متعدداً [١٦٣]

٩- أن القرآن الكريم قد يستعمل أسلوب القسم بغير مقسم به ، كما جرى العرف العربى [١٦٤] نحو قوله تعالى : ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(الأعراف: من الآية١٨)

اللام فى قوله (لمن تبعك منهم ...) موطئة للقسم أى لمن أطاعك من الإنس والجن لأملأن جهنم من الأتباع الغاوين أجمعين ، وهو وعيد بالعذاب لكل من عصى الرحمن وانقاد للشيطان [١٦٥] وقوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(المجادلة: من الآية٢١).

١٠- بيان شرف ومكانة المقسم به عند المقسم : كالقسم بحياة النبى ﷺ قال تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) فذلك تكريم له ﷺ وفيه إشعار بمدى حب الله له ، ومنزلته العالية عنده – سبحانه – وكذلك القسم بالقرآن كناية عن شرف قدرة

---

(١٦٣) انظر : التبيان فى أقسام القرآن : ١١٧ .

(١٦٤) مع القرآن الكريم للدكتور الحوفى ١٣٠ .

(١٦٥) صفوة التفاسير للصابونى ٣٠٧/١ .

وتعظيمه عند الله – عز وجل – ، وكذلك القسم بالملائكة ، لما لها من صفات جليلة الشأن ، ووظائف عظيمة القدر ، وأقسم بالزمان لمكان العظة والعبرة فيه ... وهكذا

١١- لا يجوز للعباد أن يقسموا إلا بالله ، فإذا أراد إنسان أن يؤكد أمراً من الأمور ، فيقسم بالله ، أو بأسم من أسمائه أو بصفة من صفاته فيقول مثلا : أقسم بالله أو بعزته أو بجلاله لأ فعلن كذا ، وهذا يُعد من أقوى أنواع القسم ، لأن فيه تعظيماً للمقسم به وتأكيداً للمقسم عليه ، وهذا هو القسم الشرعى ، فإذا نقضه الإنسان يأثم لذلك ، ويلزمه كفارة يمين.

الفصل الرابع

المقسم عليه مع بيان المناسبة

بينه وبين المقسم به

لقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً بليغاً بالمقسم عليه – بعد أن ذكرنا أنه قد أهتم بالمقسم به لأنه الأصل – ، وخاصة فى الأمور التى تتعلق بالعقيدة ، وأصول الدين ، فأراد الله – سبحانه – أن يمكن هذه المعانى فى النفوس ، ويرسخها فى العقول ، فاستعمل أسلوب القسم الصريح غالباً لتوكيد وتحقيق المقسم عليه .

ويمكن إجمال الأمور المقسم عليها فى المباحث التالية :-

المبحث الأول : القسم على أصول الإيمان .

المبحث الثانى : القسم على أحوال الجنس البشرى .

المبحث الثالث : القسم على البعث والجزاء والوعد والوعيد .

المبحث الرابع : وقفات حول المقسم عليه .

المبحث الأول

القسم على أصول الإيمان

وهذا المبحث يشمل ثلاثة أصول هى :-

١- القسم على إثبات وحدانية الله - تعالى - .

٢- القسم على أن القرآن حق .

٣- القسم على أن الرسول والرسالة حق .

٤- القسم على إرسال الرسل إلى الأمم السابقة .

وفيما يلى بمشيئة الله سأذكر الآيات التى تحدثت عن هذه الأصول ، ونوضح منها ما يحتاج إلى توضيح ، مع بيان المناسبة والصلة بين المقسم به والمقسم عليه .

أولاً : القسم على إثبات وحدانيته سبحانه وتعالى :-

وقد ورد ذلك فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً* فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً* فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً* إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾(الصافات: ١-٤) .

يقسم الله - سبحانه - بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته .

يقول الإمام الرازى : " إنه تعالى لم يقسم لإثبات الوحدانية إلا فى سورة واحدة ، وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون : ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾(صّ: من الآية٥) على الإنكار وكانوا يبالغون فى الشرك ، ولكنهم فى تضاعيف أقوالهم وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد وكانوا يقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(الزمر: من الآية٣) فاكتفى بالبرهان ولم يكثر من الأيمان"(١٦٦)

---

(١٦٦) انظر : التفسير الكبير ١٩٤/٢٨.

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول الإمام أبو السعود : " قوله : (إن إلهكم لواحد) جواب القسم ، والجملة تحقيق للحق الذى هو التوحيد بما هو المألوف فى كلامهم من التأكيد القسمى وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعنى قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (الصافات:٥) فإن وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته . (١٦٧)

فأقسم سبحانه بالملائكة ووصفهم بهذه الصفات العظيمة ، تنويها بفضلهم ، وللدلالة على الطاعة التامة ، والانقياد الكامل لأوامر الله فالملائكة : ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم: من الآية٦) ، فجاء هذا القسم ليثبت ويرسخ عقيدة التوحيد فى النفوس ، ويبطل الأسطورة التى كانت شائعة فى جاهلية العرب من أن الملائكة بنات الله ، فقال فى نهاية السورة : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ*أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾(الصافات:١٤٩-١٥٠) .

ثانياً : القسم على أن القرآن حق :-

وقد ورد ذلك فى ستة مواضع وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(الزخرف:١-٣)

٢- قوله تعالى : ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ*إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾(الدخان:١-٣)

أقسم سبحانه فى الآية الأولى بالكتاب المبين الذى بين الله فيه كل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدين والدنيا على أن القرآن نزل بلغة العرب ، وفى هذا تشريف وتكريم لهؤلاء القوم الذين نزل القرآن بلغتهم لعلهم يعقلون ألفاظه ومعانيه ، ويتدبروا أحكامه ويعملون بما فيه .

---

(١٦٧) انظر : تفسير أبى السعود ٤٣٢/٥ .

وفى الآية الثانية : أقسم بالكتاب المبين على زمن نزول القرآن الكريم ، وهو أفضل الكلام ، أنزله فى أفضل الليالى والأيام على سيد ولد عدنان بلغة العرب الكرام .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم ما ملخصه : " فقد أقسم الله – سبحانه – فى هاتين الآيتين بالقرآن على القرآن ، وهذا من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه . (١٦٨)

ويقول صاحب الكشاف : " والقسم بالقرآن على ذلك من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب المقسم به والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد " . (١٦٩)

٣- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ*إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة:٧٥-٧٧) .

أقسم الله – تعالى – بالنجوم ومواقعها أى مساقطها فى مغاربها ، وما يحدث الله فى تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده ، ثم عظم هذا المقسم به فقال : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وإنما كان القسم عظيماً لأن فى النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربها آيات وعبراً لا يمكن حصرها ، وأما المقسم عليه فهو إثبات القرآن وأنه حق لا ريب فيه ، ولا شك يعتريه ، وأنه كريم أى كثير الخير غزير العلم ، وكل خير وعلم فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه . (١٧٠)

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

وقد وضح ذلك ابن القيم فى نقاط وهى :-

---

(١٦٨) انظر : التبيان فى أقسام القرآن ٢٦٧ .

(١٦٩) انظر : تفسير الكشاف ٣/٤١٠ ، ٤١١ .

(١٧٠) انظر : تفسير السعدى ٨/٧٣ .

أ - أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القـرآن يهتـدى بهـا فى ظلمات الجهل والغى ، فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القـرآن فى الظلمـات المعنوية فجمع بين الهدايتين.

ب- أن النجوم رجوم للشياطين ، وآيات القرآن رجوم لشياطين الإنس والجن .

جـ - النجوم آيات الله المشهودة المعانية ، والقرآن آياته المتلوه السمعية مع ما فى مواقعها عنـد الغروب من العبرة والدلالـة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول . (١٧١)

٤- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ*وَمَا لا تُبْصِرُونَ *إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(الحاقة:٣٨-٤٠)

أقسم سبحانه بالمشاهدات والمغيبات – فى حق الإنسان – على أن القرآن حق وإنه لقول رسول كريم .

يقول الإمام ابن كثير : جواب القسم قولنا : (إنه لقول رسول كريم) يعنى محمـداً ﷺ إضافة إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ، وأكد ذلك بان واللام ، للرد على المشركين الذين قالوا عن القرآن الكريم : أساطير الأولين . (١٧٢)

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول الإمام ابن القيم ما ملخصه : " ففى ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى – لكم معشر البشر – آية ودليل على صدق رسوله ﷺ وأن ما جاء به هو من عند الله ، وهـو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن ، ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه ظهر له أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه حق ثابت فهو أصدق الكلام وأفضله وأشرفه . (١٧٣)

---

(١٧١) انظر : التبيان فى أقسام القرآن ١٣٧ .

(١٧٢) انظر : مختصر تفسير ابن كثير ٣/٥٤٥ .

(١٧٣) ملخص من التبيان فى أقسام القرآن : ١٠٩ .

٥- قوله تعالى﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ *وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ*وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(التكوير:١٥-١٩)

أقسم سبحانه بهذه الآيات العظيمة وصفاتها الدالة على قدرة خالقها – عز وجل – على رفعة شأن القرآن وعلو منزلته فقال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) أى : إن هذا القرآن كـ لام الله نزل به جبريل – عليه السلام – وأضاف القرآن إليه ، لأنه جاء به ، وهو فى الحقيقة قول الله تعالى .(١٧٤)

(١٧٤) صفوة التفاسير ٣/٥٢٣ ، ٥٢٤ بتصرف شديد .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يصورها صاحب الظلال بقوله : " وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) ثروة شعورية وتعبيرية ، فوق ما يشير إليه من حقائق كونية فجاء القرآن يحدثهم في هذا القسم عن جمال الكون البديع وحيوية مشاهده الجميلة ، ليوحي إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة التي أنشأت ذلك الجمال على غير مثال ، وليحدثهم بصفة الرسول الذي حمله والرسول الذي بلغه [١٧٥] فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ*ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ*مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ *وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾(التكوير:١٩-٢٢) .

٦- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ*وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ*إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ*وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾(الطارق:١١-١٤).

أقسم - سبحانه - بالسماء ذات المطر ، وبالأرض التي تنشق فيخرج منها النبات - بإذن الله - على أن القرآن حق وأنه فاصل بين الحق والباطل فقال تعالى : (إنه لقول فصل وما هو بالهزل) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول الإمام البقاعي ما خلاصته : " أقسم الله - عز وجل - على حقيقة القرآن ، بأنه كلامه وأن كل ما فيه حق وصدق ، فأقسم بالأمر العلوي بادئا به لشرفه ، ثم اتبعه الأمر السفلي ، فوضح أن السماء تسقي الأرض ، فتتصدع عن النبات ، فكذلك تتصدع الأرض عن الناس بعد فنائهم فيعودون كما كانوا بإذن ربهم من غير فرق أصلاً . [١٧٦]

---

(١٧٥) انظر : ظلال القرآن ٣٨٤٢/٦ ، ٣٨٤٣ بتلخيص .

(١٧٦) انظر : نظم الدر في تناسب الآيات والسور ٣٩١/٨ ، والتحرير والتنوير ٢٦٦/٣٠ ، وفي ظلال القرآن ٣٨٨٠/٦ .

فأقسم – تعالى – بالسماء التى تنزل المطر – بإذن الله – على الأرض فتنبت به النبات – بقدرة الله – كذلك القرآن العظيم ببيانه وتشريعاته وإعجازه ينبت الإيمان فى القلوب ، ويزداد كلما اتعظ القارئ بآياته فتحيا به القلوب ، وتستنير بتوجيهاته العقول ، وتستريح بإرشادته النفوس .

وفى ذلك أيضا تقرير لحقيقة البعث ، فكما أن الله قادر على إحياء الأرض بعد موتها فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم للحساب والجزاء ، وهذا حق وصدق كما أثبته القرآن الكريم .

ثالثاً : القسم على أن الرسول والرسالة حق :-

وقد ورد القسم بذلك فى خمسة مواضع من كتاب الله – تعالى – وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ*إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(يس: ١-٣)

أقسم سبحانه بالقرآن على صدق رسالة نبيه ﷺ فقال : (إنك لمن المرسلين) .

يقول الإمام ابن عاشور : " وجملة (إنك لمن المرسلين) جواب القسم ، وتأكيد هذا الخبر بالقسم ، وحرف التأكيد ، ولام الابتداء باعتبار كونه مراداً به التعريض بالمشركين الذين كذبوا بالرسالة ، فهو تأنيس للنبى ﷺ وتعريض بالمشركين ، فالتأكيد بالنسبة إليه زيادة تقرير ، وبالنسبة للمشركين لرد انكارهم . (١٧٧)

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم الله – تبارك وتعالى – بالقرآن الحكيم : أى المحكم فى آياته وفى نظمه وأسلوبه وفى هديه وتشريعاته ، على أن محمداً لمن المرسلين وأن منهجه هو الطريق المستقيم فالهدف من القسم هنا ، الاستدلال به على عظم شأن الرسالة ، فالذى أنزل القرآن هو الذى أرسل رسوله بالهدى والبيان .

---

(١٧٧) التحرير والتنوير ٢٢/٣٤٥ .

٢- قوله تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ*بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ*أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(ق:١-٣) .

أقسم الله - عز وجل - بالقرآن المجيد على إثبات النبوة للرسول ﷺ وإثبات المعاد .

يقول الإمام أبو حيان : " والقرآن مقسم به ، والمجيد صفته وهو الشريف على غيره من الكتب ، والجواب محذوف يدل عليه ما بعده تقديره : لقد جئتهم بالبعث فلم يقبلوا " (١٧٨)

ويقول ابن كثير : " جواب القسم محذوف وهو مضمون الكلام بعده وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقديره : إنك يا محمد لرسول وأن البعث حق " (١٧٩)

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم سبحانه بالقرآن ذى المجد والشرف والكمال والرفعة ، ليوضح لهؤلاء المعاندين أن ليس سبب امتناعهم عن الإيمان بالقرآن أنه لا مجد له ، بل عدم إيمانهم هو لجهلهم وجحودهم ، فقد عرفوا صدق الرسول وأمانته ﷺ فكان الأولى والأجدر بهم أن يسارعوا إلى تصديقه والإيمان بما جاء به بدلاً من أن يعجبوا ويكذبوا ويستهزئوا.

٣- قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى*مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى*وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى*إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم:١-٤)

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغى ، فهو ﷺ مبلغ عن ربه لا يتكلم إلا بوحى ، وما عدل عن طريق الحق ، ولا حاد عن الصراط المستقيم وما اعتقد باطلاً ولا اتبع هوى (إن هو إلا وحى يوحى) .

---

(١٧٨) تفسير البحر المحيط ٨/١٢٠ .

(١٧٩) تفسير ابن كثير ٣ ٣٧١ .

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم ما ملخصه : " أقسم سبحانه بهذه الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله ﷺ حق وصدق ، ولا سبيل للشيطان إليه ، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور ، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه "(١٨٠)

ويقول د / عبد الكريم الخطيب : " وفي القسم بالنجم في حال هويه ، وأفوله ، ووقوع هذا القسم على النبي ﷺ وأنه ما ضل وما غوى في هذا إشارة إلى أمور :-

أولها : أن ظهور النبي ﷺ كان في ظلمة ليل بهيم ، أطبق على العالم كله وأناخ بكلكله على الجزيرة العربية وأهلها ، وأن ظهوره هذا كان أشبه بالنجم القطبي ، الذي يرى منه المدلجون في الليل هادياً ، إذا هم رفعوا رءوسهم إلى السماء ، ومدوا أبصارهم إليه .

وثانيها : أن هذا النجم القطبي – وإن غاب عن الأعين – فانه في حقيقته قائم في مقامه العالي حيث هو ... هكذا يراه أهل العلم ... وكذلك الرسول ﷺ وإن غاب شخصه عن أعين الناس ، فإنه قائم في مقامه المكين في قلوب المؤمنين أبد الدهر . (١٨١)

٤- قوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ*مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ*وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ*وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:١-٤)

أقسم الله – تعالى – بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به في الأرض والسماء ، وجواب القسم قوله : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أي : لست يا محمد بفضل الله وإنعامه عليك بالنبوة بمجنون ، كما يقول الجهلة المجرمون . (١٨٢)

---

(١٨٠) التبيان في أقسام القرآن ١٥٢ .

(١٨١) التفسير القرآني للقرآن ٥٨٦/٢٧ .

(١٨٢) انظر : فتح البيان في مقاصد القرآن للشيخ صديق حسن خان : تفسير جزء تبارك ص ٢٢، ٢٣ ، وصفوة التفاسير للصابوني : ٤١٨/٣ .

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم : " والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه ، وهو قوله تعالى : (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) وأنت إذا طابقت بين هـذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنـواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا من عقـل وافـر فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلـوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الإتيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه ، مع كونه فى أعلى أنواع الفصاحة ، سليما من الإختلاف، بريأ من التناقض ، يستحيل مـن العقـلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له ، فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة . (١٨٣)

٥- قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِـنَ الْأُولَى*وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(الضحى:١-٥) .

أقسم الله – تعالى – بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وبالليل إذا سكن فأظلم وأدلهم ، على اهتمامه واعتنائه برسوله ﷺ فقال : (ما ودعك ربك وما قلى) فقد نفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديع : الترك ، والقلى : البغض ، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمـه ، ولا أبغضه منذ أحبه ، وهذا رد على المشركين حين قالوا : هجره ربه وقلاه . (١٨٤)

فهذه الآيات الكريمة تحمل فى طياتها أجمل بشرى للرسول ﷺ وتلقى فى نفسه السـكينة والطمأنينة .

---

(١٨٣) التبيان فى أقسام القرآن ١٣٢ ، ١٣٣ .

(١٨٤) قال المفسرون : أبطأ جبريـل – عليـه السـلام – علـى النبى ﷺ فقـال المشركون : قـد قلاه ربه وودعه . فأنزل الله تعالى ذلك .

وفى بعض الروايات ما يدل على أن قائل ذلك هو النبى ﷺ فعن الحسن أنه قال : (أبطأ الوحى على رسـول الله ﷺ فقال لخديجة : " إن ربى ودعنى وقلانى) فنزلت . انظر روح المعانى : ٢٨٢/١٦ ، ٢٨٣ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم ما ملخصه : " أقسم سبحانه بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته وهما الليل والنهار .

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه ، وأيضا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل ، وأيضا فإن الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً ، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغى ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم ، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه . (١٨٥)

ويقول د / عبد الكريم الخطيب : " وفى القسم بالضحى إشارة إلى مطلع شمس النبوة ، وأن مطلعها لا يمكن أن يقف عند حد الضحى الذى بلغته فى مسيرها ، بل لابد أن تبلغ مداها وأن تتم دورها ... فالشمس فى مسيرها لا يمسكها شئ إذا طلعت .

وفى القسم بالليل بعد الضحى ، وإلى سجوّ هذا الليل وسكونه إشارة أخرى إلى أن فترة انقطاع الوحي ، ليست إلا فترة هدوء واستجمام يجمع فيها النبى نفسه ، ويُلمّ فيها خواطره بعد هذا النور الغامر الذى بهره وهز أعماق نفسه ، وإن بعد هذا الليل الهادئ الوادع نهاراً مشرقاً وضيئاً ... فهكذا يجرى نظام الكون على ما أقامه الصانع الحكيم . (١٨٦)

رابعاً : القسم على إرسال الرسل إلى الأمم السابقة :-

وقد ورد ذلك فى موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(النحل:٦٣)

---

(١٨٥) التبيان فى أقسام القرآن : ٤٧ .

(١٨٦) التفسير القرآنى للقرآن : ١٥٩٩/١٣ .

أقسم سبحانه – وتعالى – بذاته المقدسة على إرساله الرسل إلى الأمم الماضية ، فزين لهم الشيطان الكفر ، فاتبعوه وكذبوا رسلهم .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول الإمام ابن عاشور : " قصد من هذه الآية تنظير حال المشركين الذين كفروا وكذبوا برسالة النبى ﷺ فى سوء أعمالهم وأحكامهم بحال الأمم الضالة من قبلهم الذين استهواهم الشيطان من الأمم البائدة مثل عاد وثمود ، والحاضرة كاليهود والنصارى .

ووجه الخطاب إلى النبى ﷺ لقصد إبلاغه إلى أسماع الناس ، فإن القرآن منزل لهدى الناس ، فتأكيد الخبر بالقسم منظور فيه إلى المقصودين بالخبر لا إلى الموجه إليه الخبر ، لأن النبى ﷺ لا يشك فى ذلك ، ومصب القسم هو التفريع فى قوله تعالى : (فزين لهم الشيطان أعمالهم) وأما الإرسال إلى أمم من قبلهم فلا يشك فيه المشركون[١٨٧].

---

(١٨٧) التحرير والتنوير ١٦٣/١٤ . .

المبحث الثاني

القسم على أحوال الجنس البشري

ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة نقاط :

أولاً : القسم على أحوال الناس عامة .

ثانياً : القسم على أحوال الكفار والمنافقين .

ثالثاً : القسم على أحوال الإنسان وصفاته .

أولاً : القسم على أحوال الناس عامة:-

وقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع وهي :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ* إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ* يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ* قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾(الذريات:٨-١١)

أقسم سبحانه بالسماء ذات الطرائق الحسنة المحكمة ، على أن الكافرين برسالة محمد ﷺ لفي قول مضطرب ومتناقض ، وفي حيرة وقلق وشك ، فقال تعالى (إنكم لفي قول مختلف) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول د/ محمد بكر اسماعيل : " وأما المناسبة بين السماء ذات الحبك ، والقول المختلف ، فإنها جد قوية ، فقد شبه الله الحق في وضوحه ، وإحكامه ، وحسنه ، وشدته بالسماء ذات الحبك ، وشبه أقوالهم المتناقضة ، وآراءهم الفاسدة بالباطل في تعدده ورخاوته " . (١٨٨)

وقال القاسمي في وجه المناسبة بينهما : هو تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بالسماوات في تباعدها واختلاف غاياتها " (١٨٩)

---

(١٨٨) تأملات في سورة الذاريات : ٢٠ .

(١٨٩) محاسن التأويل ١٥/٥٥٢٤ ط الحلبي .

٢- قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ*وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ*لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ﴾(الانشقاق:١٦-١٩)

أقسم الله – سبحانه – قسما مؤكداً بالشفق والليل وما يحمل من النجوم والقمر حين يكتمل نوره على أن الإنسان ليمر بأطوار متعددة وأحوال متباينة : فقال تعالى : (لتركبن طبقاً عن طبق) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول الإمام ابن عاشور ما ملخصه : " ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسم عليه ، لأن الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظلمة وظهور النور معها أو فى خلالها ، وذلك مناسب لما فى قوله : (لتركبن طبقاً عن طبق) من تفاوت الأحوال التى يتخبط فيها الناس يوم القيامة أو فى حياتهم الدنيا . ولعل ذكر الشفق إيماء إلى أنه يشبه حالة انتهاء الدنيا لأن غروب الشمس مثل حالة الموت ، وأن ذكر الليل إيماء إلى شدة الهول يوم الحساب ، وذكر القمر إيماء إلى حصول الرحمة للمؤمنين " . (١٩٠)

ويرى بعض العلماء : " أن هذه الآيات إشارة قرآنية لوصول الإنسان للقمر ، وعلى أى حال فإن ثورة الإنطلاق المحمومة نحو السماء التى نعيشها فى هذا العصر ، والجهود التى كللت بوقوف الإنسان على سطح القمر تشهد بصدق نبوءة القرآن الكريم وتؤكد لأهل عصرنا صحة النبوة الخاتمة لسيدنا محمد ﷺ (١٩١)

٣- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى*وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى*إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ (الليل:١-٤) .

أقسم الله – سبحانه – بالليل وبالنهار وبخلق الذكر والأنثى على أن أعمال وأحوال الناس مختلفة فقال تعالى : (إن سعكيم لشتى) .

---

(١٩٠) التحرير والتنوير ٢٢٧/٣٠ .

(١٩١) من روائع الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ١٤٩ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول د / أحمد محمد الحوفى : " فأقسم بالليل الذى يغطى بظلامه كل شئ بسبب غروب الشمس ، وبالنهار الذى ينكشف فيه كل شئ بشروق الشمس ، وبخلق الذكر والأنثى من نطفة واحدة ، للاستدلال بهذه الأقسام على قدرته التى أوجدت النظام الشمسى الدقيق ، وأحدث الشروق والغروب والنهار والليل ، وبقدرته التى خلقت من النطفة الذكر والأنثى ، أى أنه أقسم للاستدلال على قدرته التى تخلق الشئ وضده ، وجاء جواب القسم ملائماً لهذا التضاد ، وهو أن الناس متباينون فى أعمالهم ، ومختلفون فى مساعيهم ، والله عليم بهذا كله وسيجزى كلا منهم بما يستحقه[١٩٢] ".

ويقول صاحب التحرير والتنوير ما ملخصه : " ومناسبة المقسم به للمقسم عليه أن سعى الناس منه خير ومنه شر ، وهما يماثلان النور والظلمة ، وأن سعى الناس ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار كما ينتج الذكر والأنثى ذرية صالحة وغير صالحة ، واختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا والآخرة . [١٩٣]

ثانياً : القسم على أحوال الكفار والمنافقين :-

وقد ورد ذلك فى خمسة مواضع وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(النساء:٦٥) .

أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفى قبله على عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وسائر الصفات وغيرها ويرضوا بحكمة بسعة صدر ورحابة نفس ، لأن حقيقة الإيمان الخضوع والإذعان . [١٩٤]

---

(١٩٢) انظر : مع القرآن الكريم ١١٣ .

(١٩٣) التحرير والتنوير ٣٠/٣٧٨ .

(١٩٤) التبيان فى أقسام القرآن ٢٧٠ بتصرف .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أن تحقيق الإيمان بالله – تعالى – ، لا يتم ولا يكتمل إلا بمتابعة الرسول الكريم المبلغ عن رب العالمين مع الرضا والتسليم ، فالحكم فى مقام الإسلام ، وانتفاء الحرج فى مقام الإيمان ، والتسليم فى مقام الإحسان ، فمن التزم بهذه المنازل كلها فقد كمل إيمانه ، ومن لم يلتزم فإيمانه ناقص هذا إذا كان مؤمنا ، أما إذا كان كافراً أو منافقاً فحكمه معلوم . (١٩٥)

٢- قوله تعالى : ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(الحجر:٧٢)

أقسم الله – تعالى – بحياة محمد ﷺ تشريفاً له ، على أن قوم لوط فى غفلة شديدة يترددون ويتخبطون حتى حلت بهم صاعقة العذاب الهون .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه : -

أن القسم بحياة النبى ﷺ للتشريف والتكريم ، وهذا أمر ثابت له فى حياته وبعد مماته ﷺ فكذلك قوم لوط ثابتون مستمرون على المعصية ، فهم فى غفلة عما يترل بهم جعلتهم كالسكارى وفى ذلك يقول صاحب الظلال : قوله تعالى : (لعمرك أنهم لفى سكرتهم يعمهون) لتصوير حالتهم الأصيلة الدائمة التى لا يرجى معها أن يفيقوا ولا أن يسمعوا هواتف النخوة والتقوى والفطرة السليمة . (١٩٦)

٣- قوله تعالى : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(ص:١-٢)

أقسم الله – عز وجل – بقوله : (والقرآن ذى الذكر) فالواو للقسم ، والمقسم به القرآن الكريم ، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده (١٩٧) عليه ، وهو الإضراب فى قوله : (بل الذين كفرو فى عزة وشقاق)

---

(١٩٥) فى ظلال القرآن ٢/٦٩٧ بتصرف وتلخيص .

(١٩٦) فى ظلال القرآن ٤/٢١٥٠ بتصرف وتلخيص .

(١٩٧) انظر : البحر المحيط ٧/٣٨١ ، ٣٨٣ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم سبحانه بالقرآن الكريم ذى المجد والشرف ليبين منزلة القرآن وأنه هو الحق الذى لا ريب فيه ، وأن إعراض الكافرين عن القرآن الكريم لم يكن لخلل أو نقص فيه ، كلا ، ولكن كان إعراضهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وعدم استجابتهم لرسول ربهم ، بل أنكروا الرسالة والبعث وعجبوا من ذلك .

٤- قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾(البروج:١-٤) .

أقسم سبحانه بالسماء ذات البروج ، وباليوم الموعود ، وبالشاهد والمشهود على " قتل أصحاب الأخدود " أى : لعنوا وطردوا من رحمة الله بسبب كفرهم وعصيانهم ، وهذا هو جواب القسم ، وقيل : إنه محذوف دل عليه قوله : " قتل أصحاب الأخدود " أى : أن مصير كفار مكة وغيرهم كمصير أصحاب الأخدود فى اللعن والطرد من رحمة الله .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول أبن القيم ما ملخصه : " أقسم سبحانه بالعالم العلوى ، وهى السماء وما فيها من البروج التى هى أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً ، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك ، وهو الشاهد والمشهود ، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه ، وهم شهود على ما يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم ، والأنبياء وجوارحهم تشهد عليهم .[١٩٨]

٥- قوله تعالى : ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾(الفجر:١-٨) .

---

(١٩٨) انظر التبيان فى أقسام القرآن ٥٧ ، ٥٨ .

أقسم الله – تعالى – بالفجر والليالى العشر والشفع والوتر والليل إذا يسر ففى ذكر هذه الأشياء قسماً عظيماً مقنعاً لذوى العقول ، وبرهاناً على وجوده وقدرته سبحانه ، وجواب القسم محذوف وهو : لنعذبن الكافرين [١٩٩] يدل عليه قوله تعالى : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ...) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول د / عبد الكريم الخطيب ما ملخصه : " هذه خمسة أقسام أقسم الله بها فى بداية السورة الكريمة ، وفى ذلك دعوة لأصحاب العقول أن ينظروا فى هذه الأقسام التى تمجد من شأن الزمن ، وتجعل كل قطعة منه آية من آيات القدرة الإلهية لا يراها إلا أصحاب العقول ، ولا يدرك سر القسم بها إلا أولى البصائر والأبصار .

ومناسبة قصة عاد وثمود وفرعون لما قبلها ، هى أنها تعرض قضية من القضايا التى تستحق من العقل أن يناقشها ، وهى سنة من سنن الله – تعالى – فيما يأخذ به أهل الزيغ والضلال من بأساء وضراء فى الدنيا فوق ما أعده لهم فى الآخرة من العذاب الأليم . [٢٠٠]

ففى هذه الآيات تحذير لأهل الشر والكفر والفساد فى كل زمان ومكان من العواقب الوخيمة التى تنتظرهم ، ولهم فى الأمم السابقة العظة والعبرة ، فالله – عز وجل – يمهل ولا يهمل .

ثالثاً : القسم على أحوال الإنسان وصفاته :-

وقد ورد ذلك فى ستة مواضع وهى :-

١- القسم على رعاية الله وحفظه للإنسان : فقال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (الطارق: ١-٤)

---

(١٩٩) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٦٢/٣١ بتصرف وتلخيص .

(٢٠٠) التفسير القرآنى للقرآن ١٥٥٠/١٣ ، ١٥٥٢ بتصرف .

أقسم الله – سبحانه – فى مطلع هذه السورة بالسماء ونجومها الساطعة اللامعة المضيئة ، والمقسم عليه هو : (إن كل نفس لما عليها حافظ) أى : حافظ من الملائكة يحفظ عملها وقولها ، ويحصى ما تكتسب من خير أو شر ، وهذا يدل على الاعتناء بها ، والاهتمام بشأنها .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم الله – سبحانه – بالسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، فالقادر على ذلك ، وكل بكل نفس رقيب ملازم لها فى كل أحوالها وهذا دليل على إحاطة علم الله وقدرته – جل فى علاه – فالنفوس لم تترك سدى ، ولن تبقى مهملة ، بل تكفل بها من يحفظها .

يقول صاحب الظلال : " يقسم الله بالسماء والطارق أن كل نفس عليها حافظ يراقبها ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله ، فهى ليست أبداً فى خلوة – وإن خلت – فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمن من كل طارق ، هنالك الحافظ الذى يشق كل غطاء ، وينفذ إلى كل مستور ، كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر ... وصنعة الله وحده متناسقة فى الأنفس وفى الآفاق[٢٠١]

٣- القسم على مكابدة الإنسان للشدائد :-

قال تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ*وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ١-٤)

افتتحت السورة الكريمة بالقسم ، تشويقاً لما يرد بعده ، وتأكيداً للمقسم عليه ، فأقسم بمكة أم القرى التى شرفها الله فجعلها حرماً آمنا ، وبإقامة النبى ﷺ بها فزادها شرفاً وقدراً ، وبكل والد وما ولد على أن " الإنسان خلق فى كبد " أى : فى تعب ومشقة منذ خلقه ونشأته إلى منتهى أمره ونهايته ، فهو يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة .[٢٠٢]

---

(٢٠١) فى ظلال القرآن ٣٨٧٨/٦ بتصرف وتلخيص .

(٢٠٢) حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤٢٥/٤ بتصرف ط دار الفكر .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، ليلفت الأبصار والعقول إلى عظمة الواحد القهار الذى أكرم نبيه المختار ، وشرف مكان حله وإقامته ، ومع الرغم من كل هذا التكريم من رب العالمين كان – عليه افضل الصلاة وأتم التسليم – يعانى ويكابد مشاق الحياة من الإيذاء وغيره فصبر حتى آتاه نصر الله ، فكذلك الإنسان لابد أن يعانى ويكابد الشدائد فى هذه الحياة أيا كان غرضه وهدفه ، فكانت مكابدته وآلامه جديرة بالتقدير والإعظام حتى أقسم عليها الجليل الرحمن ، لأن الدنيا دار ابتلاء واختبار وتمحيص وتكاليف وتحتاج إلى صبر ويقين فى الله ، والقدوة لنا فى ذلك رسول الله ﷺ.

وهناك هدف آخر ومغذى عظيم ، وهو أن يسير الإنسان على نهج الرسول الكريم ﷺ حتى يجنى ثمار هذا الكد والتعب فى الدنيا بالأخذ بالأسباب ، فيسعد قلبه بالرضا والتسليم لقضاء رب العالمين ، ويسعد فى الآخرة بالنعيم المقيم فى جنات النعيم ، فهؤلاء هم السعداء الاتقياء الذين ينتهى عنهم كبد الحياة ، أما الأشقياء التعساء يعانون كبد الحياة فى الدنيا لينتهى بهم إلى الكبد الشديد العسير المرير فى الآخرة .

٣- القسم على أحوال النفس الإنسانية :-

قال تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا*وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا*وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا*وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا*وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس:١-١٠) .

أقسم سبحانه وتعالى بسبعة أشياء ، أظهاراً لعظمة قدرته وانفراده بالألوهية ، وأشارة إلى كثرة مصالح تلك الأشياء وعموم نفعها ، وجواب القسم قوله : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) أى : لقد فاز من طهر نفسه من الذنوب . وزكاها بطاعة الله وقد خاب وخسر من

حقر نفسه وأوقعها فى الذنوب والمعاصى[٢٠٣] ، وقيل : جواب القسم محذوف تقديره : " لتبعثن "

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول د / عبد الكريم الخطيب ما خلاصته : " فى هذه الأقسام نرى ستة منها متزاوجة متقابلة ، فالشمس يقابلها القمر ، والنهار يقابله الليل ، والسماء تقابلها الأرض ، وإذا بحثنا عن مقابل للنفس لا نجد هذا المقابل الذى يستدعيه سياق النظم فى ظاهره .. فإذا أمعنا النظر قليلاً نجد أن النفس تضم فى كيانها شيئين متقابلين هما : الفجور والتقوى ، أو إن شئت فقل الشمس والقمر ، أو النهار والليل ، أو السماء والأرض ... ففى كيان النفس نور وظلام ونهار وليل ، وعلوّ وسفل ، فإذا تمعنا النظر وجدنا الشمس تمثل العقل ، والقمر يمثل الضمير الذى تستضئ بصيرته من العقل ، كما يستمد القمر نوره من الشمس ، وللعقل شروق وغروب ، فإذا اتجه إلى الحق أسفر عن وجهه وكان نهاراً مبصراً يتحرك الإنسان فيه على هدى وبصيرة ، وإذا اتجه إلى الباطل غربت شمسه وأطبق ليله وعميت على صاحبه السبل ، ثم إذا اتبع الإنسان الحق اتجه صُعُدا نحو معالم النور ، فكان أقرب إلى عالم السماء ، أما إذا ركب مركب الضلال هبط إلى عالم الأرض والتراب .[٢٠٤]

٤- القسم على بداية الإنسان ونهايته :-

قال تعالى : ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ*وَطُورِ سِينِينَ*وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ*لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ١-٤)

أقسم الله – تعالى – بهذه المواضع المقدسة التى اختارها وابتعث منها أفضل أنبيائه ورسله ، والمقسم عليه قوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ..) أى : تام الخلق متناسب الأعضاء منتصب القامة لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئا ، ومع هذه النعم العظيمة التى ينبغى له القيام بشكرها فأكثر الخلق معرضون عن شكر المنعم ، فردهم الله فى أسفل سافلين أى فى جهنم

---

(٢٠٣) حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤٢٨/٤ بتصرف ط دار الفكر .

(٢٠٤) انظر : التفسير القرآنى للقرآن ١٥٨٢/١٣ ، ١٥٨٣ .

موضع العصاة والمتمردين ، إلا من أنعم الله عليه بالإيمان والعمل الصالح فلهم أجر غير مقطـوع فهم في نعيم دائم لا يزول . (٢٠٥)

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم الله – تعالى – بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة على وحدانيته وعلى علمـه وحكمتـه وعنايته بخلقه بأن أرسل إليهم رسلاً يعرفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، ويحذروهم من عذاب الله ونقمته ، ويدعوهم إلى كرامته وثوابه ، ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم من أجاب ومنهم من أبى ، ذكر حال الفريقين ، فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين في نار الجحيم ، ثم ذكر حال الذين أجابوا دعوة الرسل وآمنوا وعملوا الصالحات فلهم الأجـر العظيم عند رب العالمين . (٢٠٦)

٥- القسم على صفة الإنسان :-

قال تعالى : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ١-٨) .

أقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيماً للمقسم به وتـشنيعاً علـى المقسم عليه وهو قوله تعالى : (إن الإنسان لربه لكنود) والمراد بالإنسان بعض أفراده وهو الكافر والكنود الجاحد لنعم ربه عليه ، (وإنه على ذلك لشهيد) أى : يشهد على نفسه بصنعه ، (وإنه لحب الخير لشديد) أى : لشديد الحب للمال فيبخل به . (٢٠٧)

---

(٢٠٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدى ٢٥٣/٧ بتصرف .

(٢٠٦) انظر : التبيان في أقسام القرآن ٣١ .

(٢٠٧) انظر : حاشية الصاوى ٤٦٣/٤ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم ما خلاصته : " وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين فى سبيل الله ، والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذى هو من أكرم البهيم وأشرفه ، وهو الذى يحصل به الغزو والظفر والنصر على الأعداء ، فذكرهم – سبحانه – بنعمه عليهم فى خلق هذا الحيوان الذى ينتصرون به على أعدائهم ، وبدركون به ثأرهم ، كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم فى خلق الأبل التى تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد ، فالأبل أخص بحمل الأثقال ، والخيل أخص بنصرة الرجال [٢٠٨] ، فكان يجب عليهم مقابلة هذه النعم بالشكر والعرفان بدلا من الجحود والنكران .

ويقول الأستاذ / عبد الوهاب حموده : " أقسم الله بالخيل متصفة بهذه الصفات لينوه من شأنها ويعلى من قدرها فى نفوس المؤمنين ، ثم ليطابق بين المقسم به والمقسم عليه ، فإن المقسم عليه هو كنود الإنسان لنعمة ربه وجحوده لآلائه وكفرانه بنعمائه ، وفى ذلك جموح من القلب وعنف فى الطبع ، وشراسة فى الخلق وغرور من النفس وافتتان بالقوة ، وهذه كلها من أوصاف الخيل حين عدوها وإغارتها [٢٠٩]

٦- القسم على خسران الإنسان باستثناء أهل الإيمان

قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣)

أقسم الله – تبارك وتعالى – بالدهر والزمان لما فيه من العجائب والعبر ولأنه محل أفعال العباد لذلك أقسم على أن الإنسان لفى خسران إلا أهل الإيمان فقال : (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

---

(٢٠٨) انظر : التبيان فى أقسام القرآن : ٥٠ .

(٢٠٩) انظر : مجلة الأزهر الجزء العاشر سنة ١٩٥٩م ص ٨٧٩ ، ٨٨٠ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم : " أقسم الله – سبحانه – بالعصر الذى هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، وأن حكمته التى اقتضت خلق الزمان ، وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشراً تأبى أن يسوى بينهم ، وأن لا يجازى المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته ، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين ، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر ، إلا من رحمه الله فهداه ، ووفقه للإيمان والعمل الصالح فى نفسه ، وأمر غيره به . (٢١٠)

ويقول صاحب أضواء البيان ما ملخصه : " أقسم الله – تعالى – بالعصر المعاصر للإنسان طيلة حياته وهو محل عمله الذى به يخسر ويربح ، وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه ، لأن العمر وزمن الحياة حجة على الإنسان ، فكان القسم بالعصر على الربح والخسران أنسب ما يكون بينهما إذ جعلت حياة الإنسان كسوق قائمة والسلعة فيه العمل ، والعامل هو الإنسان ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(التوبة: من الآية١١١) ، فصح أن الدنيا سوق ، والسلعة فيها عمل الإنسان ، والمعاملة فيها مع الله – تعالى – فظهر الربط والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه . (٢١١)

لذلك كان الهدف من القسم بالزمان لأخذ العظة والعبرة ، وتنبيهاً لأصحاب العقول المستنيرة والقلوب السليمة لكى يحاسبوا أنفسهم ويراجعوا حساباتهم ، ويخلصوا نواياهم ، ويستثمروا أوقاتهم فى كل نافع ومفيد لأنفسهم ولمجتمعهم ولدينهم ودنياهم ، حتى ينجو من الخسران ويفوزوا بالجنان ومرضاة الرحمن .

---

(٢١٠) انظر : التبيان فى أقسام القرآن ٥٤ ، ٥٥ .

(٢١١) أضواء البيان ٩/٧٣ ، ٧٤ .

المبحث الثالث

القسم على البعث والجزاء والوعد والوعيد

نظراً لإنكار المشركين لقضية البعث ، وما يترتب عليها من الحساب والجزاء ، فقد ورد القسم كثيراً فى كتاب الله ليؤكد تأكيداً بليغاً إثباته ووقوعه .

ويبرهن على ذلك بالأدلة القاطعة ، فتارة يقسم بذاته المقدسة ، وتارة يأمر نبيه أن يقسم على ذلك ، وتارة يقسم ببعض مخلوقاته ، واليك بيان ذلك :-

أولاً : القسم بذاته المقدسه على أثبات البعث والحساب والجزاء :-

وقد ورد ذلك فى ستة مواضع هى : (٢١٢)

١- قال تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ*عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢-٩٣)

٢- قال تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾(النحل: من الآية٥٦)

٣- قال تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ (مريم:٦٨)

٤- قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى﴾(الاحقاف: من الآية٣٤)

٥- قال تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (الذريات:٢٣)

٦- قال تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ*عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (المعارج:٤٠-٤١) .

ثانياً : القسم على وقوع البعث والجزاء :-

أمر الله - سبحانه - نبيه ﷺ أن يقسم على وقوع البعث والجزاء ، وقد ورد ذلك فى ثلاثة مواضع (٢١٣) :-

---

(٢١٢) انظر : أقسام القرآن للدكتور / محمد محمد السيد عوض ١١١ ، ١١٢ .

(٢١٣) انظر : أقسام القرآن للدكتور / محمد محمد السيد عوض ١١١ ، ١١٢ .

١- قال تعالى : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (يونس:٥٣)

٢- قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾(سبأ: من الآية٣)

٣- قال تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن:٧)

ثالثاً : القسم ببعض مخلوقاته على إثبات البعث والجزاء:-

وقد جاء ذلك فى ستة مواضع من كتاب الله وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوا * فَالْحَامِلاتِ وِقْراً*)فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً*إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ (الذاريات:١-٦)

أقسم الله – جل ثناؤه – بهذه الأشياء العظيمة فى خلقها وقدرها ونفعها ودلالتها على أن البعث أمر لابد منه ، وأن الجزاء فيه واقع لا محالة ، فقال تعالى : (إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

إن الله – تبارك وتعالى – أقسم بهذه الأمور وبأوصافها لتأكيد المقسم عليه ، فلما كان يوم القيامة يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فيفرح فيه فريق ، ويحزن فيه فريق ، ويُنعم فريق ، ويعذب فريق ، أن يؤكد مجيئه بالذاريات المتقلبة فى هبوها وصعودها وهبوطها ، وهى مبعث رحمة ، ومصدر نعمه ، تحمل الخير كما تحمل الشر ، وكذلك شأن السحب المحملة بالأمطار ، والجاريات فى البحار والمقسمات أمور الخلق بأمر الواحد القهار . (٢١٤)

ويقول صاحب الظلال : أقسم الله بهذه الأشياء ، وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة ، ليوجه القلب إلى أسرارها المكنونة ، ويعلقه بمبدع هذه الخلائق ، فالقادر على خلق هذه الأمور بهذا النظام وهذا التقدير قادر على أن يبعث الناس للحساب والجزاء ، فإن طبيعة هذه

---

(٢١٤) انظر : تأملات فى سورة الذاريات د / محمد بكر إسماعيل ١٩ .

الخلائق توحى بأن الأمر ليس عبثا ولا مصادفة ولا جزافاً ، وهكذا تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيحائية قوية بفضل هذا القسم فهى طريقة من طرق الإيحاء والتربية ، ومخاطبة الفطرة بلغة الكون خطاباً مباشراً [٢١٥].

٢- قوله تعالى : ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ (الطور: ١-٨)

هذه المخلوقات أقسم الله – عز وجل – بها تنبيها على النظر والاعتبار بها المؤدى إلى توحيد الله ، والمعرفة بواجب حقه سبحانه ، وجواب القسم قوله : (إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع) يريد عذاب الآخرة واقع للكافرين ، قاله قتادة . [٢١٦]

والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول د / عبد الكريم الخطيب ما ملخصه : " فالطور ، والكتاب المسطور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور أقسام خمسة ، أقسم الله – سبحانه – بها ، وهى بهذا القسم تلبس ثوب التكريم ، والتعظيم ، وفى تكريمها وتعظيمها إشعاراً بعظمة الخالق ، وجلاله الذى أبدع هذه المخلوقات العظيمة وأقامها هذا المقام الكريم ، فالقادر على ذلك قادر على بعث الناس للحساب والجزاء يوم القيامة . [٢١٧]

٣- قوله تعالى : ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة: ١-٤)

أقسم الله – تعالى – بيوم القيامة لعظمه وشدته ، فالمقسم به فى هذا الموضع هو المقسم عليه ، وأقسم أيضا بالنفس اللوامة ، وجواب القسم محذوف تقديره " لتبعثن ولتحاسبن " دل عليه قوله : (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه) .

---

(٢١٥) انظر : فى ظلال القرآن ٦/٣٣٧٥ بتصرف وتلخيص .

(٢١٦) انظر :الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى ٣/٢٤١ ، ٢٤٢ ط بيروت .

(٢١٧) التفسير القرآنى للقرآن ١٣/٥٤٤ .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يوضحها صاحب التحرير والتنوير بقوله : " افتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف به نفس السامع ، وكون القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأن غرض السورة وصف يوم القيامة .

وفيه أيضاً كون المقسم به هو المقسم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسم ، والقسم بيوم القيامة باعتباره ظرفاً لما يرجى فيه من عدل الله ، وإفاضة فضله ، وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة ، ومناسبة القسم بالنفس اللوامة مع القسم بيوم القيامة ، لأنها النفوس ذات الفوز فى ذلك اليوم ، وما كان ذلك إلا لكرامتها . (٢١٨)

٤- قوله تعالى : ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيراً لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر:٣٢-٣٦)

يقسم الله – سبحانه – بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ، ودلالتها المثيرة ، على أن " سقر " أو " الجنود التى عليها " أو " الآخرة وما فيها " هى إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذره للبشر بما ورائهم من خطر (٢١٩) فقال تعالى : (إنها لأحدى الكبر نذيراً للبشر) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

أقسم سبحانه بهذه الأشياء على المعاد لما فى المقسم به من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، لأنه يتضمن كمال قدرته وحكمته وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق وإعادته كما هو مشهود فى إبداء النهار والليل وإعادتهما ، وفى إبداء النور وإعادته فى القمر ، وإبداء الزمان وإعادته الذى هو

(٢١٨) انظر : التحرير والتنوير ٢٩/٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٢١٩) انظر : فى ظلال القرآن ٦/٣٧٦٠ .

حاصل لسير الشمس والقمر ، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذى أخبرت به الرسل . (٢٢٠)

٥- قوله تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ (المرسلات: ١-٧) .

أقسم سبحانه بخمسة أشياء تنبيها على جلالة قدر المقسم به وتعظيماً لشأن المقسم عليه وهو قوله (إنما توعدون لواقع) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

يقول ابن القيم : " إن القسم فى هذه الآية وقع على نوعين الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من روح الحياة ، وقد جعلها الله نشوراً ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة ، فبهذين النوعين يحصل نوع الحياة المشاهدة ، فكان القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة وهو إثبات البعث والجزاء(٢٢١)

ويقول صاحب الظلال ما ملخصه : " وصيغة القسم توحى ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب وقواه المكنونة المؤثرة فى هذا الكون ، وفى حياة البشر ، وقد اختلف السلف فى حقيقة مدلولها ، فقال بعضهم : هى الرياح ، وقال بعضهم هى الملائكة ، وقال بعضهم : إن بعضها للرياح وبعضها للملائكة ، ... مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها ، وهذا الغموض هو أنسب شئ للقسم بها على الأمر الغيبى المكنون فى علم الله ، وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة فى حياة البشر. (٢٢٢)

---

(٢٢٠) التبيان فى أقسام القرآن ١٠٧ .

(٢٢١) التبيان فى أقسام القرآن ٩١ ، ٩٢ بتصرف . .

(٢٢٢) فى ظلال القرآن ٦/٣٧٩١ .

٦- قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ (النازعات: ١-٧).

أقسم سبحانه بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله على إثبات البعث ، وجواب القسم محذوف تقديره : " لتبعثن ولتحاسبن " ، وقد دل عليه قوله : (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة) .

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه :-

اقسم الله بالملائكة لأنها من أشرف المخلوقات ، وخصها بهذا الوصف وهو قبض الأرواح ؛ لأنه من تصرفاتها بإذن الله تذكيراً للمشركين إذ هم في غفلة عن الآخرة وما بعد الموت لشدة تعلقهم بالحياة كما قال تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾(البقرة: من الآية٩٦)، فالمشركين مثل اليهود في حب الحياة ، ففي القسم بملائكة قبض الأرواح عظة لهم وعبرة ، والقسم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السورة وهو إثبات البعث لأن الموت أول منازل الآخرة ، فهذا من براعة الاستهلال[٢٢٣]

---

(٢٢٣) التحرير والتنوير ٣٠/٦٢ .

المبحث الرابع

وقفات حول المقسم عليه

أن الباحث المتأمل فى آيات القسم يدرك بوضوح أهمية القضايا التى أقسم الله – عز وجل – عليها لذلك تكلم العلماء عن الخصائص التى تتعلق بالمقسم عليه ، وإليك بيانها بإيجاز :-

١- القسم يكون إما على جملة خبرية – وهو الغالب – كقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾(الذريات: من الآية٢٣) وإما على جملة طلبية[٢٢٤] ، كقوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الحجر:٩٢-٩٣) .

٢- القسم على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها ، ولذلك كان أكثر أقسام القرآن يدور حول الأصول الاعتقادية الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والبعث ، ويندرج تحت هذه الأصول الثلاثة فروع وجزئيات متنوعة .

٣- أن المقسم عليه الذى يراد تأكيده وتحقيقه ، ولفت الأنظار إليه يكون فى الأمور الغيبية والأحوال الخفية ، إذا أقسم الله على ثبوتها لتقريرها وتأكيدها فى نفوس المعاندين أو الشاكين فى أمر وقوعها ، وأما الأمور الظاهرة المشهورة كالآيات الكونية فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها .

يقول ابن يعيش : " الغرض من القسم توكيد وتحقيق ما يقسم عليه من نفى أو إثبات "[٢٢٥]

٤- التناسق والتناسب والتوافق بين المقسم عليه ، وأهداف الدعوة فى العهد المكى لأنه يدور حول الأصول الاعتقادية الثلاثة التى كانت محلاً للخلاف والصراع بين اتباع الحق واتباع الباطل .

---

(٢٢٤) التبيان فى أقسام القرآن : ٦ .

(٢٢٥) شرح المفصل لابن يعيش ٩/٩٠ .

٥- ومما يدل على مزيد العناية والإهتمام بالمقسم عليه ، أنه لم يقتصر الأمر فقط على الأصول فحسب ، ولكنه ركز على أحوال الإنسان وغاص فى أعماق نفسه البشرية ، وكشف عن ميوله واتجاهاته وعن أهدافه ورغباته ، وقد وضحت ذلك فى المبحث السابق .

٦- مما يثير العجب ، ويلفت الأنتباه أن الله – عز وجل – لم يقسم على إثبات الوحدانية إلا فى موضع واحد فى سورة الصافات وأقسم على إثبات رسالة الرسول ﷺ فى خمسة مواضع فى سورة يس ، وق ، والنجم ، والقلم ، والضحى ، وورد القسم كثيراً على إثبات المعاد والبعث ، والحكمة من ذلك يوضحها الإمام الرازى بقوله : " لم يقسم الله على الوحدانية ، ولا على النبوة كثيراً ، وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به ، لأن دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل : وفى كل شئ له آية تدل على أنه واحد ودلائل النبوة أيضاً كثيرة وهى المعجزات المشهورة والمتواترة ، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل ، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقاداً جازماً .[٢٢٦]

٧- الفعل الماضى إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ، كقوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١-١٠) فجواب القسم (قد أفلح من زكاها ...) حذفت منه اللام لطول الكلام .[٢٢٧]

٨- من لطائف القسم فى القرآن أن الشئ قد يقع مقسما به فى موضع ثم يقع فى موضع آخر مقسماً عليه ، وفى هذه الحالة يكون القسم على حال من أحواله أو حكم من أحكامه ، فمثلاً القسم بالقرآن وقع مقسما به مراعى فيه ذاته ، ثم أنه وقع مقسماً عليه فى حالاته[٢٢٨] : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

---

(٢٢٦) انظر : التفسير الكبير ٢٧٧/٢٨ .

(٢٢٧) مباحث فى علوم القرآن ٢٩٤ .

(٢٢٨) انظر : النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم : ٩٥ .

* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الواقعة:٧٥-٨٠).

٩- ومن أروع وأبلغ أساليب القرآن وأبدعها أن الشئ الواحد يقع مقسما به ومقسما عليه معا فى موضع واحد وقسم واحد كما ورد ذلك فى قوله تعالى : ﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(الزخرف:١-٤) ، فالقرآن الكريم وقع هنا مقسما به ومقسماً عليه ، ويسمى ذلك ابن القيم باتحاد المقسم به والمقسم عليه . (٢٢٩)

١٠- الناظر فى أقسام القرآن الكريم يرى العلاقة القوية والرابطة الشديدة ، والصلة الواضحة ، والمناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه .

١١- أن جواب القسم هو المقصود بالتأكيد والتحقيق ، ولذلك يذكر كثيراً ، وتارة يحذف إذا كان فى نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه . (٢٣٠)، ويعلم ذلك بأمرين :

١- فى حالة ظهوره والعلم به .

٢- أو فى حالة دلالة السياق عليه ، فعندئذ يكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز .

وقد ورد ذلك فى سبعة مواضع وهى :-

(١) قوله تعالى : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(ص:١-٢) .

(٢) قوله تعالى :)ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾(قَ:١-٢) .

---

(٢٢٩) انظر : التبيان فى علوم القرآن ٢٦٧ بتصرف .

(٢٣٠) انظر : التبيان فى أقسام القرآن ١٠-١١ .

(٣) قوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ* أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾(القيامة: ١-٣)

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾(النازعات: ١-٦).

(٥) قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ*وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾(البروج: ١-٥) .

(٦) قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾(الفجر: ١-٦) .

(٧) قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس: ١-١٠) وقد بينت ذلك فى المبحث السابق

١٢- إذا اجتمع القسم والشرط ، ودخل أحدهما على الآخر يكون الجواب للمتقدم منهما – قسماً كان أو شرطاً – ويغنى عن جواب الآخر ، فإذا تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم وأغنى عن جواب الشرط كقوله تعالى :)لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ)(مريم: من الآية٤٦) إذ التقدير : والله لئن لم تنته .[٢٣١]

(٢٣١) انظر : مباحث فى علوم القرآن ٢٩٦ .

الأسرار الجلية والحكم البلاغية

في الأقسام القرآنية

بعد هذه الجولة السريعة في التطواف حول القسم وما تيعلق به ، يجدر بنا أن نستنبط من كلام العلماء بعضاً من الأسرار الجلية والحكم البلاغية الدالة على القمة الإعجازيـة ، والروعـة البيانية في الأقسام القرآنية ، ويتلخص ذلك فيما يلي :-

١- الإيجاز البليغ الذي يمتاز به أسلوب القسم ، ولهذا يهجم على السامع فيمتلك مـشاعره ، ولعل العرب أكثروا منه وافتنوا فيه لوجازته ، وهم إلى الإيجاز أميل في شعرهم ونثـرهم ، ومن هنا راجت الأمثال بينهم والحكم لذكائهم وحبهم للإيجاز [٢٣٢] ، فجاء القرآن فبرع في ذلك وأعجزهم بأقسامهم التي من أجلها وغيرها خروا سجداً لله وبكياً .

٢- من المزايا العظيمة لأسلوب القسم أنه أحيانا قد يجمع بين عدة أدلة في جملة واحـدة ، أو في جمل متلاحقة ، كما في سورة التين والبلد ، والطور ، والشمس ، والليل ، والفجر ، مع الإيجاز ، ولو أن الأدلة فصلت وبسط فيها القول لفقد الكلام روعته وتأثيره[٢٣٣] ولكنـه فعل ذلك الإجمال ليترك البسط والتفصيل للعقول الواعية للاستنباط وإعمـال القـرائح لإخراج الدرر من مكامنها .

٣- القسم ضرب من ضروب الأسلوب الإنشائي لا مناص للخصم من الإقرار به ، ولا وجه له في إنكاره ، فإن شاء أن ينكر انصب إنكاره على جواب القسم لا على القسم نفسه ، لأن الجواب خبر لا إنشاء . [٢٣٤]

---

(٢٣٢) انظر : إمعان في أقسام القرآن ٤١، ٤٤ ، ٤٥ ، ومع القرآن للدكتور الحوفي ١١٦ ، ١١٧ بتـصرف وإيجاز .

(٢٣٣) انظر : إمعان في أقسام القرآن ٤١، ٤٤ ، ٤٥ ، ومع القرآن للدكتور الحوفي ١١٦ ، ١١٧ بتصرف وإيجاز .

(٢٣٤) انظر : المرجع السابق نفسه ونفس الصفحات .

٤- غالبا ما يجمع القرآن بين القسم والوصف ، كالقسم بالقرآن المجيد ، واليوم الموعود ، والصافات صفا ، ففي هذا وأشباهه قسم ووصف للمقسم به ، ليكون الاستدلال أعظم في النفس وأوقع ، وقد يوجه القرآن الخطاب إلى النبي ﷺ في أسلوب القسم وهو يريد الخصم المنكر : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ* عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (يس:١-٤) .

٥- يمتاز أسلوب القسم بأنه تأييد للمقال وتقوية وتعزيز ، وتدليل في غير الصورة المعتادة للتدليل ، إذ إن الدليل المعتاد المألوف قد يدفع الخصم إلى المحاجة والإنكار، فقوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ*إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾(العصر:١-٢) أبلغ من تحويله إلى : إن الإنسان لفي خسر ، لأن الزمن ينقص عمره ، وذلك أن الآية الكريمة إنشاء واستدلال غير صريح ، ولأن الجملة الثانية خبر واستدلال صريح(٢٣٥)

٦- تقديم الدليل على ذكرى الدعوى ، فيلقى أولا على الخصم أمراً يقرع به أذن المخاطب ، فيصغي ويترقب ما بعده ، ثم تجئ الدعوى فيسهل انقياده لها ، ولكنه إذا فوجئ بالدعوى التي ينكرها انصرف عنها ونفر منها ، وشتان ما بين أن يقال : ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، أقسم بالقلم وما يسطرون ، وبين قوله تعالى : ﴿نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ*مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(القلم:١-٢) ، فسبحان من نفى عن رسوله ﷺ التهمة قبل حكايتها . (٢٣٦)

٧- القسم في ابتداء السور له أثره النفسي في جذب انتباه السامع لأن القسم في مطالع السور استفتاح رائع ، والقليل الذي في غضون السور جمال بارع ، ولو أن كلماته التي في مطالع السور صورت لبهر جلالها وجمالها ، وحسب القارئ أو السامع أن يتخيلها ليتمثل صورة مرئي واحد كالنجم الثاقب ، والقلم الكاتب والخيل العادية ، والرياح الذارية ، أو يتمثل عدة صور كما في أول سورة الطور ، وسورة الشمس .

---

(٢٣٥) انظر : إمعان في أقسام القرآن ٤٠ ، ٤٣، ومع القرآن للدكتور الحوفي ١١٥ ، ١١٧ بتصرف وإيجاز .

(٢٣٦) انظر : إمعان في أقسام القرآن ٤٠ ، ٤٣، ومع القرآن للدكتور الحوفي ١١٥ ، ١١٧ بتصرف وإيجاز .

فإذا ما قرع سمع المخاطب بهذا الاستفتاح الرائع ، وهذه الصورة البديعية تيقظ عقله ، ونشطت نفسه . (٢٣٧)

٨- أكثر أقسام القرآن استدلالية ، ولها بلاغتها المنفردة التي لم يجتمع مثلها في أقسام الشعراء والكتاب والخطباء .فمثلا قوله تعالى : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ*الْجَوَارِ الْكُنَّسِ*وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ*وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾(التكوير:١٥-١٩)، فالقسم بهذه الأشياء وغيرها يستدل بها على عظمة الخالق – سبحانه – كذلك ما يتبع المقسم به من التنبيه على كونه دليلاً للعقلاء ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ*وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾(الفجر:١-٥) .، فنبه بعد القسم على أن الأشياء المقسم بها دلائل لمن يعقل ، وأنها قسم عظيم في تقدير من يفكر . (٢٣٨)

٩- الإعجاز البلاغي في تنوع الأسلوب القرآني ، فتارة يذكر الأمور الدالة على وجود الله وقدرته في أسلوب القسم بها ، وتارة يسوقها مساق العظة والعبرة والتوجيه ، وهي في الحالين : استشهاد ودليل على ما سيقت إليه لمن يتفكر فيها ويتدبر مراميها ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠) ، فالمتأمل في هذه الآيات وأمثالها يجد أنها جاءت للتذكر والاعتبار ، وفي مواضع أخرى وردت بأسلوب القسم للاستدلال فأقسم بالسماء والأرض والليل والنهار ولاشك أن توجيه القسم على أنه استدلالي للاحتجاج والاستشهاد يناظر ذكرها للعظة والاعتبار .

١٠- الدقة في التصوير والتعبير : فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب ويتألف من نفس الحروف الهجائية التي ينطقون بها ، وعلى الرغم من ذلك أنكر بعضهم القرآن ولم يؤمن به ، ويحتوي القرآن على القسم ببعض حروف الهجاء لتأييد قضية التحدي والإعجاز .

---

(٢٣٧) انظر : إمعان في أقسام القرآن ٤٣، ومع القرآن للدكتور الحوفي ١١٨ بتصرف وإيجاز .

(٢٣٨) انظر : إمعان في أقسام القرآن ٤٣، ومع القرآن للدكتور الحوفي ١١٨ بتصرف وإيجاز .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾(يـس:١-٢) ، وقوله : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾(صٓ:١) وقوله : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾(قٓ:١) وقوله :﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الدخان:١-٢)

فهنا تظهر روعة التصوير والتعبير فى هذه الآيات الدالة على التحدى لأنها تقسم بالقرآن الذى عجز المعاندون أمامه ، وبالحروف التى يشترك كلامهم والقرآن فى تركيبها ، فالدقة فى هذا تجعل المستمع يسلم بالمدعى ويصدق بالمطلوب ، ويستجيب لدعوة الله تعالى . (٢٣٩)

١١- معايشة الواقع الإنسانى : فالقرآن الكريم نزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً يلمس هذه المعانى النفسية ، والاهتمامات الأساسية ، ويدور حول القضايا الرئيسية التى تشغل فكر الإنسان ونفسه ، فمثلا قوله تعالى : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً*فَالْحَامِلاتِ وِقْراً*فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً*فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً﴾ (الذاريات:١-٤) .

والشاهد فى هذا أن الإنسان العربى عاش فى بيئة جافة نادرة المطر ، فكان يتطلع إلى السماء طمعاً فى الماء ، هذا التطلع جعل ذكر الرياح مثيراً لذهنه ونفسه ، ومن هنا كانت معايشة القسم لقارئه وسامعه . (٢٤٠)

١٢- من أسرار القسم فى القرآن الكريم ، المطابقة والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ، والإنسجام الفنى بين صورة القسم وجوابه ، وهذا ملحظ من ملاحظ البلاغة الإعجازية فى القرآن . (٢٤١)

١٣- قد يحذف جواب القسم فى القرآن ، فينتقل بعد القسم إلى كلام آخر ، لكنه مرتبط بالجواب المحذوف ، والسر فى هذا أنه يُسد على المخاطب المنكر طريق الفرار ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ*بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾(صٓ:١-٢) فأقسم

---

(٢٣٩) انظر : مجلة منبر الإسلام مقال د / أحمد غلوش ٢٠، ٢١ بتصرف .

(٢٤٠) انظر : مجلة منبر الإسلام مقال د / أحمد غلوش ٢٠، ٢١ بتصرف .

(٢٤١) انظر : أسرار القسم فى القرآن / مقال فى مجلة الأزهر للأستاذ / عبد الوهاب حموده ٨٧٨ .

بحرف من حروف الهجاء على سبيل التحدى والتنبيه على الاعجاز ، وأتبعه بالقسم بالقرآن ، وحذف الجواب لدلالة التحدى عليه ، وكأنه قال : والقرآن ذى الذكر إنه لكلام معجـز ، ولكن الكفار استكبروا وأعرضوا عنه . (٢٤٢)

١٤- من إبداع القرآن الكريم أنه يذكر الآيات الدالة على قدرته - سبحانه - كتمهيد لـ المراد من الاستدلال بها ، ثم يقسم بذاته - عز وجل - قال تعالى : ﴿وَفِي الْـأَرْضِ آيَـاتٌ لِلْمُوقِنِينَ*وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ*وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(الذريات:٢٠-٢٢) ، فهذه الآيات المنبثة فى الأرض وما عليها ، وفى النفوس وآحوالها وأسرارها ، وفى الـسماء ونجومها وسحبها ، كلها أدلة على وجود الخالق وقدرته ، ودلائل على صدق النبوة والقرآن والبعث ، ولهذا عقب عليها بالقسم بالذات العلية (٢٤٣) : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾(الذريات:٢٣) .

١٥- من مزايا القسم إبراز المعقول فى صورة المحسوس لترسيخه فى الأذهان وقد ورد ذلك كثيراً فى القرآن كقوله تعالى : ﴿وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى*وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾(الضحى:١-٤) فشبه نور الوحى بالضحى فى إشراقه وضوئه ، وشبه الباطل بالليل إذا غطى بظلامه كل شئ فمهما طال الليل لابد أن يعقبه نور الفجر ، وكذلك ظلام الكفر والباطل لابد أن يعقبه نور الإيمان والحق .

١٦- من مقاصد القسم تصحيح العقائد الباطلة ، فالقسم بالشمس والقمر والكواكب والنجوم والملائكة ليوضح أنها مسخرة طائعة لأمر الله لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً ، ولا تستطيع من الأمر شيئاً ، وفى ذلك رد على من اعتقد أنها آلهة ، وعلى من قال : أن الملائكة بنات الله .

---

(٢٤٢) مع القرآن د / الحوفى ١١٦ .

(٢٤٣) مع القرآن د / الحوفى ١١٢ ، ١١٣ بتصرف وتلخيص .

١٧- الاهتمام بالأحداث التاريخية التى لها آثار وتأثيرات فى حياة البشر كالقسم بالأماكن المقدسة لما حدث فيها من آيات ومعجزات واشراقات نور الوحى ، والهداية التى شرفت بها تلك الأماكن .

١٨- من الأغراض التى تميز بها القسم ، إثبات صدق الرسول ﷺ إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تضر بصاحبها وتخرب الديار ، ومع الرغم من هذا نجد أن الرسول ﷺ أقسم بكل شريف وفقاً لأمر الله – عز وجل – ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتاً وفضلاً وشرفاً ، ولم يصب بسوء ولا مكروه ، فكان هذا دليلاً على صدقه ﷺ . (٢٤٤)

١٩- من أساليب الأقسام القرآنية العجيبة تلك التى يقسم فيها الله – تعالى – بما ينكره المخاطبون على ما ينكرونه ، وذلك مثل القسم بالقرآن على إثبات رسالة النبى ﷺ فى قوله تعالى : ﴿يس*وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ *إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(يس١-٣) والمشركون منكرون لذلك كله ما أقسم به وما أقسم عليه ، ومغزى هذه الأساليب أن الله – تعالى – لا ينتقى ما يقسم به وفق أهواء المبطلين ، وإنما وفق ما يعلم أنه يستحق التعظيم .

فكأنه سبحانه يقول للمنكرين ذلك : إن إنكاركم للقرآن ليس بشئ ، وإن تعظيمه لا يتوقف على شهادتكم أو شهادة غيركم لأنه فى نفسه عظيم ، كما أن تكذيبكم للرسول ﷺ لا وزن له ولا يمنع من تعظيمه وتقديره ، وفى هذا الأسلوب نوع من المواجهة البارعة التى تجمع بداخلها معانى متعددة تجمع بين قوة الحق وثقته فى نفسه ، وتبكيت الذين يعارضونه وتسفيههم ، وحثهم أيضا على تأمل ما يعارضونه ومراجعة موقفهم منه . (٢٤٥)

٢٠- ومما تميز به أسلوب القسم القرآنى إقتران فعل القسم "بلا النافية" وهذا الأسلوب نادر فى كلام العرب ، حتى أنه ليعد أسلوباً قرآنياً خالصاً وقد بينت ذلك فى المبحث الثامن من الفصل الثالث

---

(٢٤٤) إمعان فى أقسام القرآن : ٥ بتصرف .

(٢٤٥) انظر : مقدمة فى خصائص الخطاب القرآنى د / عبد المقصود سيد جعفر ١٥٦ باختصار .

٢١- اقتران القسم بأداة الزجر والردع (كلا) وهذا من خصائص الأسلوب القرآنى فى المرحلة المكية ، وقد ورد ذلك فى خمس آيات وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ*وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ*وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾(المدثر:٣٢-٣٤) (٢٤٦)

٢- قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾(العلق:١٥) (٢٤٧)

٣- قوله تعالى : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(التكاثر:٣) (٢٤٨)

٤- قوله تعالى﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(التكاثرمن الآية٤)(٢٤٩)

٥- قوله تعالى : ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾(الهمزة:٤) (٢٥٠)

٢٢- ورود (إذا) بعد القسم الصريح ، وقد ورد ذلك فى اثنتى عشرة آية كلها مكية وهى :-

١- قوله تعالى : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾(لنجم:١)

٢- قوله تعالى : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾(المدثر:٣٤)

٣- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾(التكوير:١٧)

٤- قوله تعالى : ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(التكوير:١٨)

٥- قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾(الانشقاق:١٨)

---

(٢٤٦) أقسم الله – سبحانه – بالقمر ، والليل ، والصبح ، على أن جهنم إحدى الدواهى العظيمة التى لا نظير لها ، لذلك تقدم القسم كلمة " كلا " الدالة على الردع والزجر .

(٢٤٧) هذه الآيات نزلت فى أبى جهل ، وكلا كلمة ردع وزجر ، والتقدير : فوالله لئن لم ينته هذا الفاجر عن أذى النبى ﷺ (لنسفعن بالناصية) . أنظر المحرر الوجيز ٥٠٢/٥.

(٢٤٨) فى هذا وعيد إثر وعيد لمن انشغل بالدنيا عن الآخرة ، وجواب القسم (لترون الجحيم) أى : أقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانا ويقينا . فتح البيان ٣٦٦/١٥ .

(٢٤٩) فى هذا وعيد إثر وعيد لمن انشغل بالدنيا عن الآخرة ، وجواب القسم (لترون الجحيم) أى : أقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عيانا ويقينا . فتح البيان ٣٦٦/١٥ .

(٢٥٠) قال المفسرون : نزلت هذه السورة فى الأخنس بن شريق ؛ لأنه كان كثير الوقيعة فى الناس يلمزهم ويعيبهم ، ويظن أن ماله سيتركه مخلداً فى الدنيا ، وجواب القسم (لينبذن فى الحطمة) اللام جواب قسم محذوف تقديره : فوالله لئن لم يرتدع ليطرحن فى النار وليلقين فيها . انظر فتح البيان فى مقاصد القرآن ٣٨٣/١٥ .

٦- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(الفجر:٤)

٧- قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾(الشمس:٢)

٨- قوله تعالى : ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾(الشمس:٣)

٩- قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾(الشمس:٤)

١٠- قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾(الليل:١)

١١- قوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾(الليل:٢)

١٢- قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾(الضحى:١-٢)

والذى يلفت النظر فى هذه الظاهرة ، أن القسم فى هذه الآيات كلها مر بمراحل الليل والنهار الزمنية ، " وإذا " فى هذه الآيات ظرف للحال فهى تدل على استغراق الزمن ، وكأن الله يقسم بهذه الظواهر الطبيعية التى هى من آيات خلقه وقدرته ليلفت النظر إلى أنها متجددة دائماً وأنها ستظل متجددة على امتداد الزمان كله حتى تقوم الساعة .(٢٥١)

٢٣- ومن الظواهر الطريفة التى تميز بها القسم ، أن مادة " حلف " لم ترد إلا فى الآيات المدنية ، ولم ترد فى الآيات المكية إلا فى آية واحدة وهى قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾(القلم:١٠) وفى كل مواضع ورودها جاءت فى مقام الحنث باليمين ، ومن هنا لم ترد مقترنة بالله تعالى .(٢٥٢) أما مادة " قسم " فقد اقتصر ورودها على الآيات المكية ، ولم

ترد فى الآيات المدنية .(٢٥٣)

٢٤- ومن المزايا ما يتعلق بأسلوب القرآن فى استخدام حروف القسم (الواو ، والباء ، والتاء) فقد وردت التاء مقترنة بلفظ الجلالة (الله) فى الآيات المكية فقط ، كقوله تعالى : ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾(الانبياء: من الآية٥٧) ، فى حين أن الباء وردت مقترنة به

---

(٢٥١) نفس المرجع السابق ١١١ ، ١١٢ باختصار .

(٢٥٢) نفس المرجع السابق ١١١ ، ١١٢ باختصار .

(٢٥٣) نفس المرجع السابق ١١١ ، ١١٢ باختصار .

فى الآيات المكية والمدنية على السواء كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾(النحل: من الآية٣٨) ، وقوله سبحانه : ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾(التوبة: من الآية٤٢) ، أما الواو فأكثر ورودها فى القسم بمظاهر الطبيعة أو فى القسم بالقرآن نحو قوله تعالى : " والضحى " ، و " والليل " ... وهكذا (٢٥٤).

٢٥- الإعجاز العلمى الرائع فى القسم بالآيات الكونية ، للفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من أسرار ،وفى هذا دليل بارع وبرهان ساطع على أن المقسم به شئ عظيم فتسمع له الآذان وتستجيب له القلوب ؛ لأن القسم بهذه الأشياء يُعد شاهداً من شواهد إعجاز هذا القرآن وخاصة ونحن فى القرن الواحد والعشرين ، فلو أقسم عالم من علماء هذا العصر بهذه الآيات ، لكان ذلك أمراً مقبولاً ، وخاصة بعد الكشف العلمى الهائل عن الخفايا الموجودة فى عالم الفلك وغيره .

أما صدور القسم فى كتاب نزل على نبى أمى فى القرن السادس الميلادى ، ولم يكن فى ذلك العصر شئ من هذه العلوم ، ولم يتتلمذ ﷺ على يد بشر ، ولم يأخذ علمه من جامعة أرضية ، فهذا يدل على أنه يوحى إليه من قبل علام الغيوب الذى أقسم على ذلك بقوله : ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾(النمل:٦)

---

(٢٥٤) نفس المرجع السابق ١١١ ، ١١٢ باختصار .

الخاتمة والنتائج

" الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات " والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :-

أن طوفت فى رياض كتب التفسير وعلوم القرآن أجنى من ثمارها ، واقتطف من ازهارها ، فقد وقفت على أهم نتائج البحث وهى :-

١- جاء القسم فى القرآن الكريم جرياً على أساليب العرب وعاداتهم فى توكيد الأمور وتثبيتها ، لذلك أقسم الله - تعالى - لإثارة مشاعر العرب رداً على أسلوبهم الانفعالى العصبى فى التعامل مع القرآن الكريم ، وهذا يُعد فى قمة الإعجاز لهؤلاء القوم الذى نزل القرآن بلغتهم ، وعلى الرغم من هذا فقد عجزوا عن التحدى والمعارضة ، ولو بأقصر سورة منه .

٢- أن القرآن نزل بلغة العرب ، وللناس كافة ، وكان موقفهم منه التباين والأختلاف ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الجاحد المعاند ، فجاء القسم لتأكيد الحقائق ، ولإقامة الحجج ، ولإزالة الشكوك ولإبطال الشبهات ، لكى تتطمئن النفوس إلى صدق ما أخبر الله به فى قرآنه العظيم وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ .

٣- السر فى النهى عن الحلف بغير الله أن الحلف بالشئ يقتضى تعظيمه ، والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده ، لذلك أقسم سبحانه بمخلوقاته ، ونهى عباده عن القسم إلا بذاته ، وأسمائه العلا ، وصفاته ، للإشارة إلى أن القسم بهذه المخلوقات جاء للعظة والاعتبار ، وللفت الأنظار إلى الكون وما يحويه من حقائق وأسرار وللاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم ، والقادر العظيم ، ولتصحيح العقائد الفاسدة والباطلة عند أصحاب العقول الضآلة .

فمثلا القسم بالشمس فيه رد على الذين عبدوا الشمس وكذلك بالنجم فيه رد على من اعتقد ألوهية الكواكب ... وهكذا

٤- أقسم الله – تبارك وتعالى – بأمور على أمور ، لحكم جليلة وأهداف عظيمة تتعلق بكل من المقسم به والمقسم عليه ، فقد يقسم بالشئ لتعظيمه ، أو للتهويل من شأنه والتحذير من شره ، أو للتذكير بنعمه ، أو لدعوة العقلاء إلى التأمل فيه ، والتعرف على أسراره وقد تجتمع هذه الأغراض كلها فى القسم ، أو بعضها ، لأن الهدف الأصيل من القسم هو توكيد المقسم عليه وتقريره وتثبيته فى قلوب البشر .

٥- القسم بالآيات الكونية يُعد ضرب من البيان ، لأنها أدلة واقعية محسوسة وملموسة ، وتستميل المشاعر والوجدان ، وتثير الانتباه والتفكير إلى عظمة القرآن الكريم وما فيه روعة الإعجاز وبلاغة الأسلوب ، وخاصة فى عصر العلم الذى أظهر الكثير من المعجزات التى تحدث عنها القرآن فى هذه الآيات ، وسيظهر – إن شاء الله – المزيد والجديد فى مستقبل الأيام ، لأن عطاء القرآن لا ينفد ، وأسراره وعجائبه لا تنتهى لأنه المعجزة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان ، والمواكبة لكل تقدم وحضارة على مر الأيام ، فكم لهذه الآيات من روعة وجمال ، وكم فيها من تأملات واشراقات – سبحانك يا الله ما أعظم قدرتك – .

٦- الدلالة على البلاغة الفائقة فى تنوع الأسلوب ، وروعة التعبير وعظمة البيان لأنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب رسوله الكريم ﷺ فتارة يأتى القسم بأمور تتعلق بالعالم العلوى ، وتارة بالعالم السفلى ، وتارة بالزمان ، وتارة بالمكان ، وتارة بالإنسان ، وتارة بالحيوان ، وتارة بالخصوص ، وتارة بالعموم ... وهكذا .

ويأتى التنوع أيضا فى المقسم عليه ، فتارة يقسم على أصول الدين ، وتارة يقسم على أحوال الإنسان ، وتارة يقسم على البعث والجزاء والوعد والوعيد ... وهكذا .

٧- إذا تعدد المقسم به أو المقسم عليه فهذا ما تقتضيه الحكمة والإعجاز فى القرآن ، لأن الله – سبحانه – لا يقسم بشئ فى موضع دون غيره ، إلا لغرض يتعلق بهذا الموضع ، فقد يكون بين المقسم به والمقسم عليه مناسبة وارتباط ، وقد يظهر ذلك جلياً ، وقد يكون خفيا ، وهذا من أسرار القرآن الذى نزل مفرقاً فى ثلاث وعشرين سنة ومع ذلك فلا

تجد فيه تناقضاً ولا تنافراً ولا خللاً ولا عيباً ، ولكن تجد التناسق والترابط والصلة واضحة وظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه .

٨- أن القسم في القرآن الكريم كان غالبا بالأمور الصريحة الظاهرة كالآيات الكونية ، أما الأمور الخفية فغالباً يقع القسم عليها لتوكيدها وتثبيتها في النفوس ، وأحياناً قد يقع القسم بها للفت العقول إليها ، وتوجيه الأنظار إلى أن ما أقسم الله عليه يجوز أن يكون مقسماً به .

٩- أحياناً يحذف المقسم عليه لظهوره وللعلم به ، ولدلالة السياق عليه ، أو للتنبيه على شرف وتكريم المقسم به .

١٠- من إبداع القرآن وعظمة بلاغته يأتي أحياناً المقسم به متحداً مع المقسم عليه ، كما في أول سورة الزخرف والدخان ... وغيرهما.

١١- ورود المقسم به مسبوقاً بأداة النفي " لا " في بعض المواضع وهذا يُعد من الأساليب البيانية عظيمة الشأن لأن المقصود لازم ذلك النفي وهو تكريم المقسم عليه أو المقسم به .

أما بعد : فهذه بعض النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة والبحث ، والله أسال أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وقد بذلت في هذا البحث قدر طاقتي وجهدي ، فإن كنت قد وفقت فلله الحمد والمنة ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد اجتهدت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي القدير .

فأرجو الله أن ينفع بهذا البحث المتواضع ، وأن يجعله في ميزان حسناتي وحسنات كل من ساهم في إخراجه ، فهو ولي ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .

١- البحر المحيط لأبى حيان ط دار الفكر .

٢- البرهان فى علوم القرآن للزركشى ط دار التراث .

٣- التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ط القاهرة .

٤- التحرير والتنوير للشيخ الطاهر ابن عاشور ط الدار التونسية.

٥- الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى ط بيروت .

٦- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى ط بيروت .

٧- الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للإمام السمين الحلبى ط بيروت

٨- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام السيوطى ط بيروت .

٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود ط بيروت .

١٠- الأساليب الإنشائية فى النحو والصرف د / عبد السلام هارون .

١١- أسرار القسم فى القرآن مقال للأستاذ عبد الوهاب حموده منشور فى مجلة الأزهر .. رمضان عام ١٩٥٩م.

١٢- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ الشنقيطى ط مكتبة ابن تيمية .

١٣- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للجمل ط البيان العربى .

١٤- الفروق اللغوية وأثرها فى تفسير القرآن الكريم د / محمد الشايع ط الرياض .

١٥- أقسام القرآن د / محمد محمد السيد عوض .

١٦- القسم فى القرآن د / شوقى ضيف ط دار المعارف .

١٧- الكامل فى النحو والصرف ط / على محمود النابى ط دار الفكر .

١٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأوقايل للزمخشرى ط بيروت .

١٩- الآمالى الشجرية لابن الشجرى .

٢٠- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ط بيروت.

٢١- المدخل لدراسة علوم القرآن د / شعبان محمد إسماعيل .

٢٢- إمعان فى أقسام القرآن للشيخ عبد الحميد الفراهى .

٢٣- النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم د / الراجحى .

٢٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ط دار الجيل .

٢٥- تأملات فى سورة الذاريات للدكتور / محمد بكر إسماعيل .

٢٦- تفسير آيات الأحكام للصابونى ط دار التراث العربى .

٢٧- تفسير آيات الأحكام للسايس ط ابن كثير .

٢٨- تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده .

٢٩- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ط الأزهر .

٣٠- التفسير القرآنى للقرآن د / عبد الكريم الخطيب ط دار الفكر .

٣١- التفسير الكبير للفخر الرازى ط دار الفكر .

٣٢- تفسير المراغى للشيخ المراغى ط دار الفكر .

٣٣- التفسير الواضح د / محمد محمود حجازى ط الزقازيق .

٣٤- تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان للسعدى .

٣٥- جامع البيان فى تأويل القرآن للطبرى ط بيروت .

٣٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ط دار الفكر .

٣٧- حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ط دار الفكر .

٣٨- دراسات فى القرآن والحديث د / يوسف خليف ط مكتبة غريب .

٣٩- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للآلوسى

٤٠ - زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ط المكتب الإسلامى .

٤١- سنن الترمذى للإمام الترمذى ط دار الفكر .

٤٢- سيبويه تحقيق عبد السلام هارون .

٤٣- شرحى الرضى على الكافية لابن الحاجب ط بيروت .

٤٤- شرح المفصل لابن يعيش ط بيروت .

٤٥- صحيح البخارى شرح فتح البارى ط دار الريان .

٤٦- صحيح مسلم شرح النووى ط المصرية .

٤٧- فتح البيان فى مقاصد القرآن للشيخ القنوجى البخارى .

٤٨- فتح البيان فى مقاصد القرآن للشيخ صديق حسن خان ط القاهرة .

٤٩- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى ط دار الحديث .

٥٠- فى ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ط دار الشروق .

٥١- لا واستعمالاتها فى القرآن الكريم د / على أحمد طلب ط مكتبة الأنصار .

٥٢- لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن ط بيروت .

٥٣- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .

٥٤- مباحث فى إعجاز القرآن د/ أحمد جمال العمرى ط مكتبة الشباب .

٥٥- مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ط الرياض .

٥٦- محاسن التأويل المسمى بتفسير القاسمى للشيخ محمد جمال الدين القاسمى ط القاهرة .

٥٧- معترك الأقران للسيوطى ط القاهرة .

٥٨- مع القرآن الكريم للأستاذ أحمد محمد الحوفى ط القاهرة .

٥٩- مع القرآن الكريم فى الكون د / محمد جمال الفندى ط الهيئة المصرية للكتاب .

٦٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى ط الشعب .

٦١- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى ط القاهرة .

٦٢- مقدمة من خصائص الخطاب القرآنى د/عبد المقصود سيد جعفر .

٦٣- من آيات الإعجاز العلمى للدكتور زغلول النجار ط مكتب الشروق الدولية .

٦٤- من روائع الإعجاز العلمى د/ عاطف المليجى ط النهار .

٦٥- من وسائل القرآن الكريم فى الدعوة القسم مقال للدكتور / أحمد غلوش منشور فى مجلة منبر الإسلام شهر محرم ١٣٩٩هـ .

٦٦- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ط بيروت .

٦٧- نقض مطاعن فى القرآن الكريم للدكتور / محمد أحمد عرفه ط المنار .

****